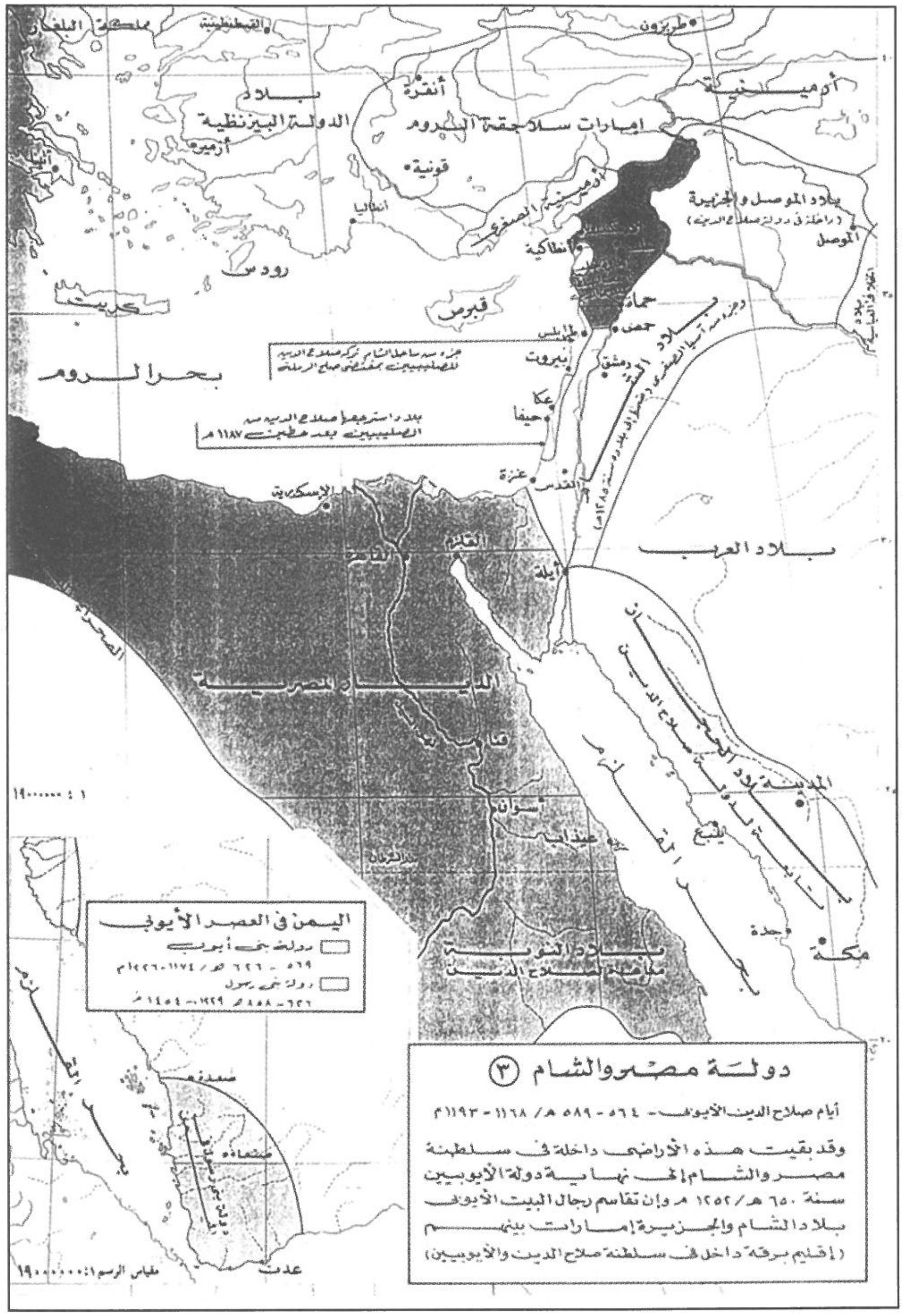




## الفصل الثاني

# فلسطين بعد صلاح الدين

رسمت اتفاقية الرملة، التي عقدها السلطان صلاح الدين مع الفرنجة سنة ١١٩٢، الحدود السياسية لفلسطين الأيوبية، بعد أن آلت أغلبية أراضي فلسطين بفعل الفتوحات الصلاحية إلى السيادة الإسلامية التي يمثلها صلاح الدين. بينما تقلصت حدود مملكة القدس اللاتينية التي يسيطر عليها الفرنجة إلى حد كبير، واقتصرت على الشريط الساحلي الضيق الممتد من مرفأ صور على البحر الأبيض المتوسط حتى مدينة يافا الساحلية. فكانت فلسطين الأيوبية تشمل منطقة الجليل ومنطقة طبرية ومرج ابن عامر وجبال السامرة، وفي مركزها مدينة نابلس، وجبال القدس وجبال الخليل، وفي مركزها بيت المقدس وبيت لحم والخليل، بالإضافة إلى المناطق الساحلية الممتدة من يافا حتى العريش على تخوم مصر، بما فيها عسقلان وغزة والداروم (دير البلح) والرملة واللد وبيت جبرين وصحراء النقب المحاذية لشبه جزيرة سيناء. وقبل أن يغادر صلاح الدين مدينة القدس متوجهاً إلى دمشق بعد توقيع الهدنة العامة، أوكل إلى عدد من قادته إدارة الولايات الفلسطينية.(١)

لم تطل أيام صلاح الدين كثيراً، وبعد بضعة أشهر من مكوثه في دمشق وافته المنية في أواخر صفر ٥٨٩هـ/ أوائل آذار (مارس) ١١٩٣م عن عمر يناهز السابعة والخمسين. وكان ابنه الملك الأفضل قد بويع بالمُلك، وحلف له قادة العساكر في مناسبات متعددة من قبل، فاقتسم مُلك البلاد مع أخويه وعمه العادل وأبناء عمومته الآخرين.(٢) وكان قرار تقسيم المملكة اختمر في ذهن صلاح الدين منذ مطلع الثمانينيات من القرن السادس الهجري بعد أن شفي من المرض الذي ألمّ به وهو في الجزيرة يستعد للاستيلاء على الموصل. فلمّا عاد من حرّان إلى دمشق في مطلع سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، أخذ في تهيئة المناخ السياسي بين أبنائه وباقي أمراء الأسرة الأيوبية من أجل إخراج فكرة التقسيم إلى حيز الوجود. وشرع في إجراء بعض التنقلات الإدارية التمهيدية كي تكون عملية انتقال السلطة بعد موته سلسة وغير محكومة بالارتجال والمفاجآت. وكان ابنه الملك الأفضل آنذاك يقيم بمصر نائباً عنه فيها، فحدثت بينه وبين ابن عمه، تقي الدين عمر، أمور أدت إلى النفرة فيما بينهما. فعزم صلاح الدين على استبدال الأفضل بابنه الأصغر الملك العزيز عثمان، ولذلك استدعى

الأفضل إلى دمشق وطلب منه الانتقال بأهله وحشمه وحاشيته، فخرج من مصر حتى وافى أباه في دمشق. وكذا فعل مع تقي الدين عمر الذي كان أعدّه والياً على إمارة حماة. ثم أرسل ابنه العزيز إلى مصر ليدير شؤونها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. أمّا الملك العادل فقد كان موكلاً بإدارة مدينة حلب، فاستدعاه إلى دمشق وأرسل بدلاً منه ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي تمهيداً لتعيينه ملكاً عليها عندما تحين الساعة المناسبة.[٣]

كان هذا التدبير قبل معركة حطين، وقبل الهجوم المضاد الذي شنه الفرنجة واستعادوا جرّاءه مدينة عكا ومدن الساحل الفلسطيني، والذي انتهى بصلح الرملة. فجاء تطور الأحداث التي أعقبت ذلك ليحدث تحولاً في رأي السلطان صلاح الدين الذي تبيّن له أن خطة تقسيم مملكته وتجزئتها بين أبنائه وأبناء إخوته وأشقائه ستؤثر سلباً في قدرة ملوك الأسرة على التصدي للعدوان الخارجي، والصمود أمام تهديد الفرنجة. فانعكس هذا التحول في المخاوف التي كانت تساوره وهو يتردد بين قبول عروض الصلح مع الفرنجة وبين رفضها. وقد كانت هذه المخاوف أحد العوامل التي رجحت عنده قرار الموافقة على عقد الصلح، إذ يروي القاضي بهاء الدين ابن شداد عن صلاح الدين ما كان أفضى إليه بمكنون نفسه وهو يقلب الرأي بين الرفض والقبول، إذ قال: «أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني. فيقوي هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم. وترى كل واحد من هؤلاء قد قعد في رأس تلة [يعني في حصنه] وقال لا أنزل فيهلك المسلمون.»[٤]

لكن هذه المخاوف التي أبداها صلاح الدين، والتي عكست تحفظاته من خطة التقسيم التي وضعها، لم تجد لها صدى على أرض الواقع. فظلت خطة التقسيم على ما كانت عليه كما خطط لها السلطان أول مرة، علماً بأنه كان قادراً على إلغائها أو تعديلها لو أراد ذلك.

## فلسطين وتقسيم المملكة

قسمت مملكة صلاح الدين إلى ممالك متعددة، تولى الملكية فيها بعض أبنائه وبعض إخوانه وبعض أبناء إخوته. وكانت أهمها ممالك ثلاث من نصيب أبنائه، موزعة كما يلي:

- مملكة دمشق لابنه البكر الملك الأفضل نور الدين علي.
- مملكة حلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.
- مملكة مصر لابنه الملك العزيز عثمان.



- مملكة اليمن لأخيه الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب.
- مملكة البلاد الشرقية لأخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب مضافاً إليها الكرك والشوبك.
- مملكة حماة لابن أخيه ناصر الدين محمد ابن المظفر تقي الدين عمر.

أمّا حمص وبعلبك وبصرى فقد جعلت إمارات مستقلة، لكنها تتبع إدارياً للملك الأفضل ملك دمشق.

أمّا الحصون والقلاع الرئيسية في بلاد الشام فوضعت بإمرة كبار قادة جيش صلاح الدين، وكان عددها عشرة حصون.[٥]

أُلحقت فلسطين الأيوبية التي اشتملت آنذاك على المناطق والبلاد التي حررها صلاح الدين في إبان الفتح الصلاحي بمملكة دمشق. وكانت مدينتا القدس ونابلس وما يتبعهما من أعمال هما المركزان الإداريان الرئيسيان في الولاية الفلسطينية. إذ كان كثير من المدن والبلدات الأُخرى قد دمر في أثناء حرب التحرير، وخصوصاً أعمال التدمير الاحترازية للمدن الساحلية وبعض المدن الداخلية التي دمرت كجزء من خطة صلاح الدين الدفاعية، كي لا يستخدمها الفرنجة في هجومهم المضاد لاستعادة المناطق التي فقدوها، وكي لا يتخذوا منها قواعد حصينة ينطلقون منها للهجوم على مدينة القدس وغيرها. وكانت مدن عسقلان والرملة وغزة وبيت جبرين وطبرية مثالاً لهذا التدمير. وبالإضافة إلى المناطق الساحلية الفلسطينية التي دخلت ضمن سلطة مملكة القدس اللاتينية، فقد أُلحقت ولاية الكرك/ الشوبك بمملكة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وسلّم حصنا كوكب وعجلون للأمير عز الدين أسامة، أحد القادة العسكريين في جيش صلاح الدين.[٦]

## القدس بين التبعية
## لمملكة دمشق والتبعية لمصر

كانت مدينة القدس تحت السيادة المباشرة للملك الأفضل بحكم تبعية فلسطين الإدارية لمملكة دمشق. وكان الأفضل أوكل أمور دولته إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري الشيباني، شقيق المؤرخ المشهور عز الدين ابن الأثير، بينما انشغل هو بملذاته وانغمس في اللهو تاركاً لوزيره كامل التصرف في شؤون المملكة. فأشار عليه الوزير ابن الأثير أن يتخلى عن القدس ويسلمها لأخيه العزيز ملك مصر بحجة أن

مسؤوليته عن المدينة المقدسة ستكون باهظة التكاليف لما تحتاج إليه من مال ورجال، وأن خطوة كهذه ستؤدي إلى إرضاء غرور العزيز بعد أن ازدحم بلاطه في القاهرة بأمراء العساكر الصلاحية، الذين فارقوا الأفضل، والتجأوا إليه احتجاجاً على سوء معاملة الأخير لهم. لاقى تنازل الأفضل عن القدس الترحاب لدى العزيز، ووقع الأمر في قلبه مِوقع الشكر والمَسَرَّة. فأسرع إلى إرسال الأموال لتصرف على شؤون المدينة، وأمر بحمل الغلال والمؤن لسد حاجات أهلها ورخائهم. وجهز العساكر التي وصلت إلى مصر لتعزيز حامية المدينة خوفاً من هجوم مفاجئ قد يشنه فرنجة الساحل عليها. لكن هذه الخطوة لم ترق لأعين الأمراء الصلاحية الذين كانوا يتولون الشؤون الإدارية والمالية لمدينة القدس، وخافوا من محاسبة العزيز لهم بسبب ما كانوا اختلسوه من أموال الأوقاف المحبوسة على المدينة. وكان السلطان صلاح الدين أوقف ثلث خراج نابلس وناحيتها على تعمير بيت المقدس وتصريف الخدمات لأهلها.

فاتصل هؤلاء الأمراء بالملك الأفضل يحثونه على التراجع عن قراره بالتنازل عن المدينة لأخيه، وتعهدوا له بأنهم سيعفونه من الأموال التي كان خصصها للصرف عليها، مؤكدين له أن ما يجبى من الأموال الموقوفة سيسد حاجة المدينة، إعمارها ونفقتها، وأن الأموال المخصصة لها ستوفر على الخزينة المركزية. استجاب الملك الأفضل بالموافقة على ما اقترحه الأمراء، وتراجع عن قراره بتسليم القدس لأخيه العزيز. ومما شجعه على إلغاء التنازل أن العزيز كان أكرم بعض الأمراء الذين فارقوه، وحولوا عنه ولاءهم وطاعتهم. فكان التراجع عن هذه الخطوة سبباً في النفور الذي ساد العلاقة بين الأخوين.[٧] ومما زاد في إذكاء نار الوحشة بينهما ذلك الدور التحريضي الذي أداه أمراء العساكر الناصرية (مماليك صلاح الدين) ممن أبعدوا عن دمشق أو تركوها بسبب استئثار الوزير ضياء الدين ابن الأثير بالقرار، وبسبب تقديم الأمراء الجدد عليهم. وكان الملك العزيز قد بالغ في إكرامهم وتقديمهم على سائر قادة عسكره من الأمراء الأسدية (مماليك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين)، الذين كانوا في مصر في جيشه. ولم يغفل العزيز في هذه الأثناء عن الخطر، إذ كان يخشى أن يؤدي ضعف أخيه الأفضل، واتكاله على وزيره وعلى مستشاريه، إلى ضياع البلاد واستيلاء الفرنجة عليها. فخرج على رأس جيش نحو دمشق لإقصاء أخيه عن مُلكها. وكان أخذ في طريقه إلى دمشق في إعادة توزيع الإقطاعات في فلسطين على قادة عسكره وعلى مقربيه بعد أن صادرها من أيدي الأمراء القدامى الذين أقطعهم إياها أخوه. فلمّا علم الأفضل بتحرك أخيه، وبنيته أخذ دمشق، استنجد بعمه العادل الذي كان يقيم آنذاك بقلعة جعبر في الجزيرة، وبأخيه الظاهر غازي ملك حلب، وبكل من أمراء حماة وحمص وبعلبك، فاجتمعوا جميعاً لنصرته ناكرين على الملك العزيز إقدامه



على هذه الخطوة غير المبررة. وبتأثير المكانة التي يتمتع بها الملك العادل عند ابني أخيه المتنازعين تم التوصل إلى تسوية بين الأخوين المتنافرين، جرى بموجبها تقسيم فلسطين بينهما على أن تكون مدينة القدس وما يتبعها من نواح وأعمال للعزيز، وتصبح طبرية وناحيتها والغور وأعماله تابعة لمملكة الأفضل في دمشق. ولمّا جرت التسوية قاد العزيز جيشه عائداً إلى مملكته في مصر في أوائل شعبان ٥٩٠هـ/أوائل آب (أغسطس) ١١٩٤م.[٨] ويلاحَظ أن التسوية لم تأت عملياً بجديد، لأنها جاءت لتأكيد الخطوة السابقة التي كانت قائمة قبيل حدوث النزاع بين الطرفين حين تنازل الأفضل عن القدس وأعمالها لأخيه العزيز بمحض إرادته ومن دون إكراه. وكل ما حدث أن التسوية كانت بمثابة إسباغ الشرعية السياسية على عملية التنازل السابقة.

من ناحية أُخرى، فإن التسوية لم تضع حداً للصراع الذي تفجر بين الأخوين، لأن الأمراء الصلاحيين، الذين هجروا الملك الأفضل وانضووا تحت لواء العزيز في مصر، ما فتئوا يحرضون العزيز على أخيه ويزينون له الاستيلاء على مملكة دمشق، حتى استطاعوا إقناعه بأن الأمراء الأسدية في عسكره يميلون إلى أخيه، وأنهم تواطأوا معه على تجريده من ملكه وإقصائه عن عرش مصر، وأن خير وسيلة لوضع حد لأذاهم وقطع دابرهم أن يستولي على دمشق ويصرف أخاه عن مُلكه. وساهم توتر العلاقات بين ملك حلب، الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وبين عمه العادل، الذي آوى وحمى بعض الأمراء الخارجين على طاعته، في تشجيع الملك العزيز على غزو دمشق، إذ راسله الملك العادل وحثه على الإسراع في القدوم. فخرج العزيز بجيش مصر وخيم في الفوار على مشارف مدينة دمشق. في هذه المرحلة شرع الملك العادل في تحريك الخيوط من أجل تنفيذ خطة الاستيلاء على المملكة التي يبدو أنه كان أدارها في ذهنه. فاستغل حنكته وقديم خبرته بفئات الجيش وقطاعاته والحساسيات التي تحكم العلاقة فيما بينها؛ وأخذ يراسل الأمراء الأسدية في جيش العزيز مستغلاً تذمرهم من ميل الأخير إلى الأمراء الصلاحية الذين وفدوا إليه من دمشق، وصار يحثهم ويحرضهم على تركه والانضمام إلى طاعة الأفضل. وفي الوقت نفسه أخذ يبعث بالرسائل إلى ابن أخيه الملك العزيز يحذره مما يكيد له الأمراء الأسدية. وسرعان ما انعكس تأثير رسائل التشكيك التي كان يرسلها الملك العادل على العلاقة بين العزيز والقادة الأسدية حتى إنهم كانوا يلاحظون تغيره من خلال قسمات وجهه. فقر رأيهم على الانسلاخ عن الجيش بعد أن استطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم أمير أمراء العساكر الأكراد أبا الهيجاء السمين. فانفصل أبو الهيجاء يقود الأمراء الأسدية ومن يلوذ بهم من العساكر، إضافة إلى عساكر الأكراد المهرانية. وكانت هذه المجموعة تشكل أغلبية عساكر جيش العزيز. فلمّا علم العزيز بهذه

الحركة الانفصالية أبدى الارتياح لرحيلهم عنه، وطوى معسكره في اليوم التالي عائداً إلى مصر. بعث أبو الهيجاء السمين رسولاً يعلم العادل برحيل العزيز، ويطلب منه اللحاق به لمنعه من الوصول إلى مصر وانتزاع المُلك منه. فاتفق العادل والملك الأفضل على اقتسام مُلك مصر، على أن يكون للعادل الثلث، وللأفضل الثلثان. وعندما اجتمع العادل بأبي الهيجاء السمين زعيم المتمردين أشار عليه بالتريث. وكان موقفه راجعاً إلى تدبير آخر يخفيه في نفسه، كشفت عنه التطورات فيما بعد. فلمّا وصل المتحالفون إلى القدس عزلوا نائب الملك العزيز، وأعطيت نيابتها لأبي الهيجاء السمين، فرتب رجاله في إدارتها وإدارة الأعمال والنواحي التابعة لها. وانضم إلى حليفيه الأفضل والعادل، وتوجهوا جميعاً إلى مصر في إثر الملك العزيز، ونزلوا بلبيس. ويبدو أن الملك العادل لم يكن مطمئناً إلى الأمراء الأسدية، وخاف من مكرهم، فأرسل يطلب الاجتماع بالقاضي الفاضل الذي كان يقيم بالقاهرة، بحجة الاسترشاد والاستشارة؛ وهو في الحقيقة إنما يريد أن يرسل من خلاله رسالة إلى الملك العزيز بشأن وضع نهاية لهذه الأزمة. ولهذا السبب شجع العزيز القاضي الفاضل على مقابلة عمه الملك العادل فالتقيا واتفقا على الصلح. وكان العادل يخشى أن يتنكر الأفضل للاتفاق الذي أبرم بينهما إذا ما ظلت العساكر الأسدية موالية له، وإذا ما استطاع أخذ مصر بعد أن ينحي أخاه العزيز. لذلك حرص على أن يسرع في الصلح قبل أن تشتبك العساكر، ويحدث الحسم العسكري لمصلحة الأفضل، كما أنه أقنع العزيز بضرورة المصالحة مع الأمراء الأسدية واسترضائهم. وفيما يتعلق بالوضع بين الأخوين فقد اتفق على أن تعود القدس وكل أراضي فلسطين إلى الأفضل، وتكون مصر للعزيز. أمّا ما كان متعلقاً بالعادل نفسه فقد اتفق على أن يظل إقطاعه في مصر بتصرفه، وأن تتاح له الإقامة بها. وكانت غايته من ذلك أن يظل على صلة بالأسدية والأكراد الذين كانوا تمردوا على العزيز، كي يسهل عليه قيادهم واستخدامهم لخدمته وتحقيق أغراضه عندما يحين الوقت لذلك. وبعد أن أبرم الاتفاق عاد الأفضل إلى دمشق في محرم ٥٩٢هـ.(٩)

## الملك الأفضل
## ضحية طموحات الملك العادل

كان الملك العادل يطمح، في هذه المرحلة، إلى ولاية دمشق، وهو مطمح لا يمكن تحقيقه إلاّ بإزاحة الملك الأفضل وتقويض مملكته. فأخذ يعمل من أجل ذلك بكثير من الحنكة والدهاء معتمداً سياسة المراحل المتدرجة. فرأيناه يظهر التعاطف



والتأييد المطلق للملك الأفضل، وتجلى ذلك في وقفته الصلبة ضد محاولات الملك العزيز للاستيلاء على دمشق. وكي يضعف الملك العزيز سعى للوقيعة بينه وبين قادة جيشه، الأمر الذي أسفر عن مفارقة الأمراء الأسدية والأمراء الأكراد له وانضمامهم إلى صفوف الملك الأفضل في إبان محاولة العزيز الثانية الاستيلاء على دمشق. ولمّا مالت الكفة إلى مصلحة الملك الأفضل، وكادت سلطة العزيز تتهاوى، حينما وصلت قوات الأول إلى بلبيس في طريقها إلى القاهرة، أسرع العادل إلى ترتيب تسوية جديدة تنهي النزاع بين الأخوين، كي لا تحسم المعركة لمصلحة الأفضل. وفي هذه المرحلة شرع في التقرب من الملك العزيز مستغلاً إقامته بمصر على مقربة منه، وظل ملازماً له يمحضه النصيحة بتدبير شؤون مملكته حتى نال ثقته. ثم استطاع إقناعه بمهاجمة دمشق والاستيلاء عليها، وهو حلم طالما راود العزيز، وحاول أن يحققه كما رأينا من قبل. وكانت سيرة الأفضل، سلوكياته الخلقية وسلوكياته الإدارية، جعلت منه هدفاً سهلاً للنقد والتجريح، وساهمت في نجاح حملة التحريض التي شنها العادل ضده. وقد لاقت هذه الحملة نجاحاً لا عند العزيز فحسب، بل أيضاً عند كثيرين من قادة العساكر والأعيان الدمشقيين الذين ضاقوا ذرعاً بسلوكه، وبتسليطه وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري الشيباني على رقاب الناس. فبدت محاولة العادل للاستيلاء على دمشق، تحت راية العزيز، أنها حرب تحرير، قصد بها تخليص الدمشقيين من تجبر الوزير ابن الأثير واستهتار الملك الأفضل.

دخل الجيش الذي قاده العزيز والعادل مدينة دمشق من دون مقاومة، لأن قادة جيش الأفضل كانوا سئموا منه. وعزل الأفضل عن المُلك، واتفق على إخراجه مع أهله وعياله إلى قلعة صرخد في بادية الشام، وأصبح العزيز ملكاً على كل من مصر ودمشق وصارت له الخطبة والسكة. ولمّا قرر العودة إلى مصر جعل عمه الملك العادل نائبه على دمشق، وذلك في شعبان ٥٩٢هـ/تموز (يوليو) ١١٩٦م. وكانت فترة حكم الملك الأفضل في مملكة دمشق بلغت ثلاثة أعوام وبضعة أشهر. وبحكم سيطرة العزيز على عرش دمشق أصبحت فلسطين الأيوبية جزءاً من مملكته. وفي عودته إلى مصر عرّج على بيت المقدس، وأمر بعزل واليها أبي الهيجاء السمين، زعيم الأكراد ومقدمهم، الذي كان الملك الأفضل عيّنه عليها مكافأة له على انشقاقه عن العزيز في إبان الحملة الثانية على دمشق. وأمر بإخراجه إلى بغداد حيث لقي هناك حتفه بعد وقت قصير. وعوضاً عن أبي الهيجاء السمين عيّن الأمير سنقر الكبير والياً على بيت المقدس.(١٠)

## الملك العادل
## يستولي على مصر والشام

في محرم ٥٩٥هـ/تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٨م، توفي الملك العزيز عثمان، ملك مصر ودمشق، بعد أن تقنطر به فرسه في رحلة صيد، وكان أولاده صغاراً لم يتجاوز أكبرهم تسعة أعوام. وكان الأمير فخر الدين جهاركس، مقدم العساكر الناصرية (مماليك السلطان صلاح الدين)، هو الشخصية الأقوى بين الأمراء جميعاً، وصاحب الأمر النافذ في المملكة. وكان لجهاركس هوى في الملك العادل يرى فيه الأحق بعرش المملكة، وكان هوى أمراء العساكر الآخرين من الأكراد والأسدية عند الملك الأفضل يرونه الأحق بمُلك أخيه. فأسرع فخر الدين جهاركس إلى إرسال أحد رجاله ليبلّغ الملك العادل، الذي كان في ذلك الوقت يحاصر مدينة ماردين في منطقة الجزيرة، بموت العزيز وضرورة قدومه إلى مصر ليتسلم عرش المتوفى. اجتمع مقدمو العساكر، وعلى رأسهم جهاركس والأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسدية، ليتفقوا بشأن من يولون على العرش. فاتفق على تولية ابن العزيز، على أن يعيّن أحد أبناء صلاح الدين ليكون وصياً على العرش حتى يبلغ الطفل أشده. وبعد أخذ ورد استقر رأيهم على اختيار الملك الأفضل المقيم بقلعة صرخد ليشغل هذا المنصب. وكان تدخل القاضي الفاضل هو الذي حسم أمر هذا الاختيار. ثم بُعث رسول إلى صرخد يحمل البشارة إلى الملك الأفضل. أمّا رسول جهاركس إلى الملك العادل فافتضح أمره بعد أن قبض عليه بعض أنصار الأفضل وهو في فلسطين. وجاء في رواية أن هذا الرسول إنما بعث إلى والي نابلس ميمون القصري ليكون حليفاً لجهاركس في منع تعيين الملك الأفضل وصياً على عرش ابن أخيه.

خرج الملك الأفضل من صرخد متنكراً، في نفر قليل من رجاله، فور تلقيه رسالة الاستدعاء إلى مصر بعد أن مضى على موت أخيه أكثر من ٤٠ يوماً. وكان يخشى أن يكتشف أمره فتضبطه شرطة الجوازات التي وضعت على المداخل بين فلسطين ومصر. وهكذا استطاع أن يصل إلى بلبيس بسلام حيث وجد بعض إخوته في استقباله، وحضر معهم مقدم الناصرية فخر الدين جهاركس. فأقبل الأفضل على أخيه الملك المؤيد مسعود، ولم يقبل دعوة جهاركس له على الطعام، فأحس الأخير ريبة من ذلك وظن أن الأفضل يبيّت له السوء. فقرر ترك مصر، واستأذن الأفضل في الخروج إلى إحدى جهات مصر بحجة إخماد فتنة حدثت بين بعض القبائل. ولمّا أذن له الأفضل في الخروج فر ومضى إلى مدينة القدس واستولى عليها، فلحقه جماعة من أمراء العساكر الناصرية وانضموا إليه في فلسطين، كان بينهم الأمير قراجة والأمير



سراسنقر. وفي بيت المقدس انضم إليهم والي نابلس ميمون القصري، وكان من الأمراء الناصرية. فاجتمعت كلمة هؤلاء على معارضة الملك الأفضل، وإعلان تأييدهم للملك العادل، وأرسلوا إليه ليحضر من ماردين في عجل ويسيروا معاً إلى مصر للاستيلاء على عرشها. وفي مصر نجح الملك الأفضل في الوصول إلى القاهرة، وتولى منصبه كأتابك لابن أخيه الملك المنصور ابن العزيز. وأرسل إلى جهاركس بعد أن علم بفراره إلى فلسطين كي يعود إلى مصر، إلاّ إن الأخير لجّ وأمعن في المعارضة. وتوالى انضمام مقدمي الناصرية إليه في مدينة القدس، فاستوحش الأفضل منهم وقبض على من بقي منهم في مصر.[١١]

## أبناء صلاح الدين
## يضيّعون عرش مصر ودمشق

لمّا استقر الملك الأفضل وصياً على عرش أخيه في مصر، حمله أنصاره ومؤيدوه على مهاجمة دمشق وتخليصها من قبضة عمه الملك العادل. وكانت دمشق، كما هو معروف، قد آلت إلى الأفضل بوصية أبيه قبل أن يتم إقصاؤه عن المُلك بتدبير أخيه العزيز وعمه العادل. ثم جاءه الرسل من طرف أخيه الملك الظاهر غازي، ملك حلب، ومن طرف ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، ملك حمص، يحثانه على سرعة التحرك منتهزاً غياب الملك العادل عن دمشق وانشغال جيشه بمحاصرة ماردين، ووعداه بتقديم الدعم العسكري والمادي اللازمين لهذه المهمة. وفي هذه الأثناء استمرت محاولات الأمراء الناصرية، الذين انشقوا عن الملك الأفضل وجعلوا من القدس مقرهم، لاستحثاث الملك العادل على فك حصار ماردين وضرورة عودته إلى دمشق لمواجهة التطورات. وكان العادل أعرض عن ترك الحصار والتوجه إلى مصر لمّا علم بوفاة الملك العزيز، ولم يَرَ موجباً للإسراع في العودة. ويبدو أنه أدرك خطورة الوضع في هذه المرحلة، فعاد على جناح السرعة إلى دمشق تاركاً مهمة الحصار لابنه الملك الكامل، ووصل إليها قبل يومين فقط من وصول الملك الأفضل على رأس الجيش الذي قاده من مصر في شعبان ٥٩٥هـ/ حزيران (يونيو) ١١٩٩م.

لم يستغل الأفضل الأوضاع المؤاتية للاستيلاء على دمشق في الأيام الأولى بعد وصوله إليها، فضيّع بذلك فرصة ذهبية دفع ثمنها تبدد أحلامه في استعادتها، وضياع مُلك أسرة صلاح الدين لمملكة مصر. وعلى الرغم من التعزيزات العسكرية التي انضافت إلى جيش الأفضل، الذي ظل يحاصر دمشق، فإن ميزان القوى كان يميل

باستمرار إلى مصلحة الملك العادل. ولم يستطع التحالف متعدد الأطراف، الذي بناه الأفضل، والمكون من جيش حلب بقيادة أخيه الملك الظاهر غازي، ومن جيش حمص بقيادة الأمير شيركوه بن محمد، ومن جيش إمارة حماة، ومن الأمير حسام الدين بشارة أمير قلعة بانياس، ومن الأمير سيف الدين مسعود أمير صفد، أن ينجح في الاستيلاء على المدينة. وكان التحالف الذي تجمع مع الملك العادل يقتصر فقط على الأمراء الناصرية المتمركزين في فلسطين ومعهم عسكر الأمير ميمون القصري والي نابلس، وعسكر الأمير عز الدين أسامة أمير قلعتي كوكب وعجلون، وعساكر أمير بعلبك. وعندما شعر الملك العادل بضغط التحالف المعادي أرسل إلى ابنه الملك الكامل أن يفك حصاره لماردين ويقود جيشه عائداً إلى دمشق.

وعندما دخل جيش الكامل دمشق تقهقر جيش التحالف الذي يقوده الأفضل، وضرب معسكره في منطقة حوران بعيداً عن دمشق. وكان هذا التقهقر مقدمة تفكك التحالف وعودة الملك الأفضل خائباً إلى مصر بعد أن أمضى ما يقرب من سبعة أشهر وهو يحاصر المدينة.

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى فشل حملة الملك الأفضل على دمشق تلك المناورات السياسية التي قام بها الملك العادل مستغلاً التناقضات القائمة بين الملك الأفضل وأخيه الملك الظاهر ملك حلب. ففي أثناء الحصار سَرّب إلى علم الشقيقين وأطراف التحالف الأُخرى أنه عازم على ترك دمشق وبلاد الشام كلياً بعد سبعة أشهر، لأنه يريد التفرغ لأمور ولاية الجزيرة والمشرق، وهما نصيبه من التركة التي خلفها أخوه السلطان صلاح الدين. وكان هدفه من تسريب هذه الشائعة امتحان صلابة التحالف من جهة، وقياس حجم التنافس القائم بين الشقيقين بشأن استئثار أحدهما من دون الآخر بمملكة دمشق من جهة أُخرى. وقام العادل، في الوقت نفسه، بإعلام الملك الظاهر، وكان صهره إذ زوجه إحدى بناته، بأنه إنما ينوي تسليمه دمشق ليصبح ملكاً عليها بدلاً من أخيه الأفضل. فأسرع الملك الظاهر في أعقاب هذا الوعد إلى مكاشفة أخيه الأفضل برغبته في تاج مملكة دمشق، ولمّا رأى تمسك أخيه بملكها لنفسه أسرّها في نفسه وتغير رأيه بشأن استعادتها.

وعلى صعيد آخر، روي أن الملك العادل كان يرسل كل يوم رسائل جوابية إلى عدد من أمراء الجند والقادة في جيش الأفضل، عن رسائل وهمية لم يكتبوها، ليوهم بأن هؤلاء القادة يفاوضونه سراً، ويعرضون عليه ولاءهم في مقابل طلبات بعينها قدموها له. وكانت غاية هذه الكتب إشاعة أجواء الريبة والتشكيك بين الأفضل وقادة عسكره وبين قادة العساكر فيما بينهم، حتى أصبح القادة في معظمهم في عداد المتهمين بإخلاصهم وولائهم للملك الأفضل. وعلى الصعيد العسكري، ساهم حلفاء



العادل من الأمراء الناصرية المتمركزين في فلسطين في تشويش طرق الاتصال بين جيش الأفضل النازل إلى جبهة دمشق وبين قواعده في مصر، بحيث أعاقوا وصول الإمدادات العسكرية التي طلبها الأفضل من هناك، فضلاً عن قطع طرق القوافل التي كانت تحمل المؤن والعتاد من مصر إلى الجبهة. وفوق ذلك كله، كان الأمراء الناصرية في القدس قد قضوا على العناصر المتعاطفة مع الأفضل بين عساكر فئة جنود القدس ونابلس، وخصوصاً المغاربة الذين أخرجوا من القدس. فأدت هذه الأمور مجتمعة إلى انفراط عقد التحالف، وساهمت في قرار الأفضل بالانسحاب والعودة إلى مصر.(١٢)

## العادل يستولي على المُلك

عاد الملك الأفضل إلى مصر في ربيع الأول ٥٩٦هـ/كانون الثاني (يناير) ١١٩٩م، وتفرق عساكره كل إلى إقطاعه. ثم جاءته الأخبار أن عمه الملك العادل خرج ومعه حلفاؤه أمراء العساكر الناصرية إلى مصر للاستيلاء عليها . وكان الأمراء الناصرية اشترطوا على العادل، وحلف لهم على أن يبقي المنصور ابن الملك العزيز على عرش البلاد، وأن يكون هو مدبراً للمُلك إلى حين بلوغ الملك الطفل سن الرشد. فساروا إلى مصر على هذه النية، ولم يبد الأفضل مقاومة تذكر لقلة من بقي معه من العساكر، بينما أسرع كثيرون من قادته إلى مكاتبة الملك العادل ليضمن كل منهم لنفسه مكاناً في حكمه. فلمّا وصل الأفضل إلى القاهرة وعرف حجم تخاذل قادته وتخليهم عنه، بادر إلى الاتصال بعمه والاجتماع به، وطلب أن يعطيه ولاية دمشق على أن يترك منصبه وإقامته بمصر. لكن العادل رفض هذا الطلب، فسأله الأفضل أن يعطيه ولاية حرّان، فأبى العادل ذلك أيضاً، فاقترح أن يعطى ميافارقين وحاني وجبل جور في منطقة الجزيرة، فأجابه عمه إلى ذلك. فترك الأفضل مصر إلى مقره في قلعة صرخد، وأرسل إلى ميافارقين رسولاً عنه ليتسلمها من صاحبها، لكن أميرها نجم الدين أيوب، ابن الملك العادل، رفض تسليمها وسلّم الرسول ما عداها. فبلّغ الأفضل ذلك للعادل الذي ادعى أن ابنه لا يطيعه بشأن ميافارقين، فأمسك الأفضل من حينها عن المطالبة بها واكتفى بما مُنحه. ولمّا استقرت الأمور في مصر قرر الملك العادل مصادرة المُلك لنفسه وعزل الملك المتوج المنصور ابن العزيز ابن صلاح الدين. وإزاء احتجاج الأمراء الناصرية (مماليك الناصر صلاح الدين) على هذه الخطوة، جمع الملك العادل حشداً من الفقهاء واستفتاهم بهذا الشأن، فأفتوا في عدم شرعية المُلك لطفل لا يبلغ سن الرشد، وعدم شرعية منصب الوصاية على العرش،

وفي أن منصب السلطان هو حق للكبير البالغ فقط.

لقد اتكأ العادل على هذه الفتوى تسويغاً لاغتصابه عرش حفيد صلاح الدين، الملك المنصور، وهو يعلم بأنها فتوى غير مسبوقة في الفقه السياسي الإسلامي، لأن كلاً من التاريخ الإسلامي وتاريخ الخلفاء ملآن بالسوابق التي تنفي صحتها وشرعيتها. ولم يكن الملك العادل أول حاكم مغتصب في الإسلام غطى اغتصابه بلبوس الشرعية الدينية. ولعل ما روي عنه في هذا الصدد ينبئ بما لا يدع مجالاً للشك؛ إذ نقل عنه قوله لمّا جمع الأمراء والأعيان ليطلعهم على نيته الاستبداد بالسلطة وعزل ولد العزيز عنها: «إنه قبيح بي أن أكون أتابكاً لصبي مع الشيخوخة والتقدم، مع أن المُلك ليس بالميراث وإنما لمن غلب.» ولما تم له الأمر أمر بأن يخطب له في المساجد، وبأن تلغى الخطبة للملك المنصور. ثم عيّن ابنه الكامل نائباً عنه في مصر وألزم الأمراء ببيعته، وعيّن ابنه الفائز ليكون بديلاً من ابنه الكامل في المشرق. وكان جعل ابنه المعظم عيسى نائباً عنه في دمشق من قبل. ولم تنته سنة ١١٩٩ حتى أقيمت الخطبة للملك العادل في مصر ودمشق، وفي أرض الجزيرة وحرّان والرها وميافارقين، وضربت السكة باسمه في هذه البلاد. ومنذ هذا التاريخ انتقلت السلطنة من الفرع الصلاحي إلى الفرع العادلي ضمن الأسرة الأيوبية.(١٣)

## ردة الفعل على اغتصاب العادل للمُلك

أثارت خطوة الملك العادل بتنحية المنصور ابن العزيز عن السلطنة ووثوبه على المُلك غضب الأمراء الناصرية، حلفائه بالأمس ضد الأفضل. وكان الأمراء الناصرية هم آخر من ظل وفياً لأسرة صلاح الدين. وكي يمتص العادل غضبهم ويخفف غلواء إنكارهم لما فعل، سعى لاسترضاء كبار مقدميهم. وعمد إلى مقدمهم فخر الدين جهاركس فأوعز إليه الاستيلاء على حصن بانياس عقوبة لصاحبه الأمير حسام الدين بشارة لأنه تقاعس عن الانضمام إليه حين توجه لأخذ مصر من الأفضل. وكان الأمير بشارة انضم إلى التحالف الذي قاده الملك الأفضل لأخذ دمشق من العادل. وبدعم من نائب دمشق المعظم عيسى ابن الملك العادل استطاع جهاركس انتزاع قلعة بانياس من صاحبها. وإذا كان العادل نجح في استرضاء الأمير الناصري جهاركس، ولو إلى حين، فإنه لم ينجح في استرضاء الآخرين. وكان على رأس هؤلاء الأمير ميمون القصري والي نابلس في فلسطين (كان القصري من مماليك صلاح الدين، استلحقه حين استولى على مصر، فنسب إلى قصر الخلفاء في القاهرة لأنه كان من مماليك الخلفاء الفاطميين). وكان القصري أنكر على الملك العادل اغتصابه عرش المنصور،



حفيد صلاح الدين، أيّما إنكار، وكتب رسالة في هذا المعنى وبعث بها إلى العادل في القاهرة وطالبه بإعادة المُلك إلى صاحبه، وأنه سيخرج عن طاعته إن لم يفعل. فأغلظ العادل في رده على ميمون القصري، وهو ما حدا الأخير على مكاتبة باقي الأمراء الناصرية يحرضهم على العادل ويستنهضهم للتمرد عليه، لكن من دون جدوى؛ إذ أبدى هؤلاء الأمراء تخاذلاً عن دعوة القصري. وفي أثناء ذلك حدثت وحشة بين الملك العادل وابن أخيه الملك الظاهر غازي، ملك حلب، بسبب الإهانة التي ألحقها بمبعوثيه اللذين أوفدهما إلى القاهرة لنقل رسالة كتبها إليه. فعاد المبعوثان أدراجهما إلى الشام وعرّجا على نابلس واجتمعا بواليها الأمير ميمون القصري، وما زالا به حتى أقنعاه بالانضمام إلى معسكر المعارضة للملك العادل الذي يقوده الأخوان، ملك حلب وأخوه المخلوع الملك الأفضل. ثم استطاع ميمون القصري إقناع أمير آخر من أمراء فلسطين، هو عز الدين أسامة نائب قلعتي كوكب وعجلون، بالانضمام إلى المعارضة، لكن الأخير سرعان ما تراجع عن هذا الموقف، وأفشى للملك العادل ما يدبره قادة المعارضة.

في أثناء ذلك كان الأفضل يقيم بقلعة صرخد، ويكاتب الأمراء الناصرية من مقره هناك. فأرسل الملك العادل إلى ابنه ونائبه في دمشق الملك المعظم عيسى يأمره بالتوجه إلى صرخد لمحاصرة الملك الأفضل. ثم كتب إلى ميمون القصري وإلى الأمير فخر الدين جهاركس يأمرهما بالتوجه بقواتهما إلى قلعة صرخد كي يشاركا في حصارها مع قوات المعظم عيسى. رفض الأميران الأمر العادلي، وبدلاً من ذلك سارا بقواتهما ودخلا قلعة صرخد كي يعززا الدفاع عنها إلى جانب الملك المظفر خضر، شقيق الملك الأفضل، والذي أوكل إليه أخوه أمر الدفاع عن القلعة قبل أن يتوجه إلى حلب للانضمام إلى أخيه الملك الظاهر غازي. وبموازاة هذه الحركة أرسل الأميران المتمردان إلى الملك الظاهر، ملك حلب، يحثانه على الخروج نحو دمشق وأخذها مستغلاً غياب نائبها المعظم عيسى. وإزاء هذه التطورات المتسارعة تحرك الملك العادل لحماية دمشق وخرج على رأس جيش من القاهرة، وفي طريقه إليها نازل حامية مدينة نابلس، بينما استمر جيشه في السير نحو دمشق فدخلها قبل أن يصل الملك الظاهر والملك الأفضل إليها.

لم ينجح حصار الأخوين لدمشق، الذي دام بضعة أشهر، في إحراز شيء يذكر لتحالف المعارضة الجديد، بعد أن دب الخلاف بين الملك الظاهر والملك الأفضل بشأن مَنْ سيؤول إليه مُلك دمشق بعد الاستيلاء عليها. فتفرقت العساكر المشاركة في الحصار، وعاد الملك الظاهر إلى حلب مصطحباً معه بعض الأمراء الناصرية وعلى رأسهم الأمير ميمون القصري، بينما توجه الملك الأفضل إلى حمص وانضم إلى أهله

وعائلته وكان أخرجهم من قلعة صرخد. وبعد أن هدأت عاصفة هذا الصراع الجديد/ القديم بين العادل وأبناء أخيه تم الاتفاق، في آب/أغسطس ١٢٠١ بين أبناء الأسرة الأيوبية على أن يكون العادل سلطان البلاد جميعها، وتبقى حلب وما يتبعها للملك الظاهر، وتظل إمارات حماة وحمص وبعلبك لأصحابها القدامى. أمّا الملك الأفضل فعوض عن صرخد بإقطاعه قلعة نجم مع سروج وسميساط، بينما تكون بلاد المشرق لبعض أبناء العادل. ووفقاً للتقسيم الجديد كان من الطبيعي أن تكون فلسطين الأيوبية ضمن مملكة دمشق التي ظلت من نصيب الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل.[١٤]

## فلسطين أيام الدولة العادلية

بعد أن اغتصب الملك العادل أبو بكر بن أيوب مُلك ولدي أخيه الأفضل والعزيز على التوالي، وبعد أن نجح في بسط نفوذه على باقي أجزاء مملكة أخيه الناصر صلاح الدين، فقد أبقى على جرثومة التجزئة التي حقن بها صلاح الدين العقلية السياسية لأبناء الأسرة الأيوبية، والتي كانت بمثابة العراب الذي أتى بالعادل نفسه إلى سدة الحكم بعد أن تقوضت ممالك أبناء أخيه. فقد ارتكب الملك العادل الخطأ السياسي ذاته الذي ارتكبه أخوه مؤسس الدولة، فقسم دولته بين أبنائه أقساماً أربعة، وجعل على كل قسم منها ملكاً منهم ينوب عنه، فكان ذلك تمهيداً لظهور ممالك سرعان ما انفصلت بعضها عن بعض عن لحظة موته. وكان قرار التقسيم الذي اتخذه الملك العادل قد خرج إلى حيز الوجود قبل وفاته بأكثر من عقد من الزمان حين كان لا يزال في كامل وعيه، يتمتع بالصحة ورجاحة العقل، ولم تضطره إلى ذلك علة في عقله أو في بدنه.

جعل الملك العادل لابنه الملك الكامل ناصر الدين محمد مملكة مصر. وأعطى ابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى البلاد الشرقية ومحورها، الرها وأعمالها وحرّان وأعمالها. ومنح ابنه الملك الأوحد نجم الدين أيوب خلاط وميافارقين ونواحيها. وأعطى ولده الحافظ أرسلان شاه قلعة جعبر. أمّا ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى فقد كان من نصيبه مملكة دمشق الممتدة من العريش إلى حمص، وأدخل فيها أرض فلسطين وبلاد الساحل وغور الأردن والقدس وطبرية والكرك والشوبك وقلعة صرخد. وعلى خلاف ما حدث مع أبناء أخيه بعد موت أبيهم فقد ثبت كل من أبناء العادل في المملكة التي مُنحها في وفاق ووئام، ولم يجر بينهم من الاختلاف كما يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم. فظلوا كالنفس الواحدة يثق الأخ منهم بأخيه لم



تفرقهم المطامح.[١٥] ولم يعكر صفو العلاقات بين الإخوة، أبناء الملك العادل، إلاّ ما حدث بين المعظم عيسى، ملك بلاد الشام وفلسطين، وبين أخويه الملك الكامل والملك الأشرف موسى في الأعوام الأخيرة التي سبقت وفاة المعظم. فبعد أن استطاع تحالف الإخوة الثلاثة صد الهجمة الفرنجية على مصر سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، قام الملك الأشرف بزيارة بلاط أخيه الكامل في القاهرة، ومكث في ضيافته عدة أشهر. وكان تجاوز دمشق في طريقه إلى القاهرة ولم يعرض على أخيه الملك المعظم مرافقته في هذه الزيارة كما تقتضي اللياقة الدبلوماسية، فأسرّها المعظم في نفسه. وقبل أن تنتهي زيارة الأشرف قام المعظم عيسى بضم بلدتي المعرة وسلمية إلى مملكته، وأراد أن يستولي على مدينة حماة، فشق ذلك على الأشرف وشكا ذلك إلى الكامل، فأرسل إليه يأمره بالرحيل عن حماة وتركها وشأنها فتخلى عنها مكرهاً. ولمّا عاد المعظم عيسى إلى دمشق بلغه أن أخويه يتآمران عليه. وكردة فعل على ذلك أبدى تقرباً من الخليفة في بغداد نكاية بأخيه الأشرف. ثم قام بخطوة أُخرى أقضت مضاجع أخيه الملك الكامل حينما كتب إلى السلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه ملك الشرق، ذي النجم الصاعد، رسالة يستمده فيها بالعون ضد مطامح أخيه، ووعده أن يعلن ولاءه له. وعلى خلفية هذه التطورات كانت الاتصالات التي أجراها الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني، إمبراطور الدولة الرومانية. وفي أعقاب ذلك استعد الملك الكامل للخروج ضد أخيه ملك دمشق لولا خوفه من تمرد بعض قادته. وفي هذه الأثناء مات الملك المعظم عيسى، ووضع موته حداً للتوتر الذي ساد علاقة الأخوين.[١٦]

## فلسطين بعد موت الملك المعظم عيسى

مات المعظم عيسى ملك دمشق في ذي القعدة ٦٢٤هـ/تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٢٧م، بعد أن أمضى ما يقرب من عشرة أعوام وهو يستقل بعرشها. وكانت مملكته تشمل مناطق فلسطين الأيوبية، بما فيها منطقة البلقاء وغور الأردن. وبموته زال التهديد الذي كان يخشاه أخوه الملك الكامل سلطان مصر، فلم يخفِ ارتياحه لموت أخيه. قام من بعد المعظم عيسى بالمُلك ابنه الملك الناصر داود، فأقر الملك الكامل هذا التعيين وبعث إلى ابن أخيه بالخلعة والسنجق (الراية السلطانية) تعبيراً عن الإقرار والمصادقة، ثم كتب إليه رسالة يطيب فيها خاطره، ويطلب منه أن يتخلى له عن قلعة الشوبك الواقعة شرقي وادي عربة، ليجعلها خزانة يودع أمواله وذخيرته، ويأوي إليها وأهله وعياله في النائبات. لكن الملك الشاب الناصر داود خيب ظن عمه

ورفض التنازل عن القلعة، فكان ذلك سبباً في الوحشة التي وقعت في نفس الملك الكامل منه. فأخذ يبحث عن ذرائع يتستر وراءها لمعاقبة ابن أخيه والانتقام من الإهانة التي ألحقها به. فوجد في سيرة الملك الناصر داود الشخصية، انشغاله باللهو من جهة، وتسلطه على أموال أهل مملكته وسيرته الظالمة فيهم من جهة أُخرى، ذريعة كافية تبرر ما سيتخذه من إجراءات لمحاسبته.

كان قرار الملك الكامل متطرفاً، إذ عزم على تجريد الناصر داود من مُلكه وإقصائه عن مملكة دمشق. فخرج على رأس جيش من القاهرة في رجب ٦٢٥هـ/ حزيران (يونيو) ١٢٢٨م، ونزل معسكر تل العجول على مقربة من مدينة غزة، وأرسل بعض عساكره الذين استولوا على مدينة القدس ونابلس والخليل وغيرها من المناطق الفلسطينية. أدرك الناصر داود خطورة الوضع، وأن لا قبل له بالتصدي لجيش عمه الملك الكامل إذا ما توجه نحو دمشق، فأرسل إلى عمه الملك الأشرف موسى مستغيثاً عسى أن يشفع له عنده. وفي هذه الأثناء تحرك الملك الكامل بجيشه من تل العجول ونزل مدينة نابلس وأقام بالقصر الذي أقامه أخوه الراحل الملك المعظم عيسى. ولمّا وصل الملك الأشرف إلى دمشق لم يضيّع وقتاً في الانتظار، وغادرها إلى نابلس لمقابلة الملك الكامل مصطحباً معه الملك الناصر داود. وقبل خروجه بعث برسالة إلى أخيه يسأله فيها العفو عن ابن أخيه، ويطالبه بأن يبقيه ملكاً على دمشق من دون غيرها. فلمّا تسلم الملك الكامل الرسالة وعلم بقدوم الأشرف إلى نابلس قرر العودة إلى القاهرة. وعندما وصل الأشرف وجده قد غادرها، فقرر اللحاق به ومقابلته وحده من دون الناصر داود الذي بقي ينتظر في نابلس. أدرك الأشرف أخاه الملك الكامل في تل العجول قبل أن يخرج من أرض فلسطين، فاجتمع به. وكان الكامل يعلم بمطمح الأشرف أخيه في مملكة دمشق، فأظهر له أنه إنما اجتاح فلسطين وأخذها من ابن أخيه ليس طمعاً، لكن حرصاً على حمايتها من مطامح الفرنجة المتوثبين لاستعادتها منذ حررها عمه صلاح الدين، بدليل ما قاموا به من إعادة تحصين صيدا وبعض أجزاء من مدينة قيسارية، وأنه الآن بعد أن وصل الأشرف يستطيع أن يطمئن إلى سلامة مدينة القدس من تهديد الفرنجة، إذا ما وافق على أخذ هذه المهمة على عاتقه.

لم يستطع الملك الأشرف الصمود أمام هذا العرض المغري الذي طالما كان يحلم به، وهو أن يصبح ملكاً على عرش دمشق، وأن يكون حامياً لبيت المقدس. وكان الملك الأشرف نشأ وترعرع في مدينة القدس حين كان في كفالة أحد أمراء أبيه فخر الدين عثمان الزنجاري، أحد قادة الملك العادل. ولذلك لم يتردد لحظة في قبول عرض أخيه، ونسي مهمة الوساطة التي خرج من أجلها لإنقاذ عرش الناصر داود



ابن أخيه المعظم عيسى، فتم الاتفاق بين الأخوين، فيما عرف بمؤتمر تل العجول، على ما يلي:

(١) يصبح الملك الأشرف موسى ملكاً على دمشق وأعمالها من حمص شمالاً حتى عقبة فيق المطلة على بحيرة طبرية جنوباً.

(٢) تصبح فلسطين وشرق الأردن من عقبة فيق شمالاً حتى العريش جنوباً جزءاً من مملكة الملك الكامل وضمنها كل القلاع والحصون في هذه المناطق.

(٣) يعوّض الملك الناصر داود عن عرش دمشق ببعض المناطق الشرقية التي كانت جزءاً من مملكة الأشرف، مثل حرّان والرقة وسروج ورأس العين.

(٤) يعطى أميران مواليان للملك الكامل إمارتي بعلبك وحماة بدل أميريهما السابقين.[١٧]

## الناصر داود يخسر عرش دمشق
## وولايته على فلسطين

استهلت سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وما زال الناصر داود، ملك دمشق، في نابلس ينتظر عودة عمه الملك الأشرف، الذي ذهب لملاقاة أخيه الملك الكامل. وعندما عاد الأشرف وجد أن الناصر داود غادر نابلس بعد أن علم بتفصيلات الاتفاق بين عميه في تل العجول. فأسرع الأشرف إلى اللحاق به حتى أدركه وهو مخيّم في قصير ابن معين في منطقة الغور الشمالي، وعرض عليه قبول ولاية البلاد التي سيعوضها في مقابل تنازله عن عرش دمشق، فأبى الناصر داود، وعاد إلى دمشق ليستعد للدفاع عنها. وورد في بعض الروايات أن خطة استلاب عرش الناصر داود كانت تقضي بأن يُلقى القبض عليه إذا رفض قبول ما خصص له، وأن الملك الأشرف كان ينوي فعلاً إلقاء القبض عليه في قصير ابن معين لولا وصول الأمير عز الدين أيبك، مملوك المعظم عيسى، الذي كان ولاه أميراً على قلعة صرخد قبل وفاته، وتخليص ابن سيده من محاولة الأسر الذي كان سيقع فيه. سار الملك الأشرف في أعقاب الناصر داود وحاصر مدينة دمشق، وقطع عنها مصادر المياه. وظل محاصراً المدينة في انتظار وصول أخيه الملك الكامل، الذي تخلف في تل العجول تمهيداً لتوقيع اتفاقية يافا بينه وبين الإمبراطور فردريك الثاني، والتي أسفرت عن تسليم مدينة القدس للفرنجة. وفي أثناء الحصار حدث تصدع في الجبهة الداخلية الدمشقية، إذ انشق بعض الأمراء والقادة الموالين للناصر داود وانضموا إلى معسكر خصميه الملك الأشرف والملك الكامل. وكان أبرز هؤلاء الأمير عز الدين أيدمر المعظمي أكبر أمراء جيشه، وكان أميراً في

ولاية جنين. فالتحق بالملك الكامل بعد أن التقاه في بلدة يبنى قريباً من غزة بسبب إهانة لحقته من سيده الناصر داود. وانشق عنه أيضاً الأمير كريم الدين الخلاطي الذي كان من أخص الأمراء به. وفارقه عمه الملك الصالح إسماعيل ابن العادل، وكان والياً على مدينة بصرى. كما فارقه ابن عمّه الملك المغيث الذي انضم أيضاً إلى عمه الملك الأشرف. وبعد أن انضم الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف في حصار دمشق، وطال الحصار عدة أشهر اشتد عطش الناس في المدينة بسبب قطع ماء الأنهر عنها، وشحت المؤن وغلت الأسعار وازدادت معاناتهم. ومع ذلك استمر أهل دمشق في مقاومة المحاصرين ودفعهم عن أسوار المدينة. واضطر الملك الناصر داود، بسبب عدم قدرته على الاستفادة من أمواله الطائلة التي كانت مودعة قلعة الكرك، إلى ضرب أوانيه الذهبية والفضية دنانير ودراهم للإنفاق على العسكر والمناصرين. أخيراً، ضعفت همته للصمود والاستمرار في المقاومة فخرج تحت جنح الظلام من قلعة دمشق ومعه نفر يسير من أصحابه وألقى بنفسه على باب خيمة عمه الملك الكامل. رق قلب الكامل لابن أخيه وطيب خاطره وأعاده إلى القلعة بعد أن وعده بتعويض عن عرشه. ثم فتحت أبواب دمشق في يوم ١ شعبان ٦٢٦هـ/ ٢٥ حزيران (يونيو) ١٢٢٩م، ليتسلم الملك الأشرف عرش دمشق بدلاً من الناصر داود. وكان التعويض الذي قدم للناصر داود جزءاً من ترتيبات إدارية أُخرى أعيد بموجبها رسم الخريطة السياسية لفلسطين ومملكة دمشق على النحو التالي:

(١) أُعطي الناصر داود منطقة الكرك والشوبك وأعمالها. بالإضافة إلى منطقة البلقاء والسلط والأغوار. وأعطي أيضاً نابلس وأعمالها وبيت جبرين وأعمال مدينة القدس، لأن مدينة القدس نفسها كانت سلمت للإمبراطور فردريك الثاني، إمبراطور الفرنجة. ثم تنازل الناصر داود بعد ذلك عن طيب خاطر عن الشوبك لعمه الملك الكامل. وكانت الشوبك هي السبب المباشر في النزاع الذي تفجر بينه وبين الملك الكامل والذي أطاحه بالتالي كصاحب عرش مملكة دمشق.

(٢) ضُمت باقي المناطق الفلسطينية التي لم تكن خاضعة للاحتلال الفرنجي إلى الملك الكامل، ملك مصر، وصارت جزءاً من مملكته، وهي مناطق الخليل وغزة وعسقلان والرملة واللد وطبرية، وسائر المناطق الساحلية التي بقيت تحت سيطرة المسلمين.

(٣) أصبح الملك الأشرف ملكاً على دمشق، وفي مقابل ذلك تنازل عن مناطق حرّان والرها والرقة وسروج ورأس العين وجملين والموزر، فأضيفت إلى مملكة الكامل.



(٤) أُقر باقي الأمراء الأيوبيين، مثل الملك الصالح والعزيز والمغيث، على أعمالهم السابقة.

بعد هذه المصالحة خرج الناصر داود من مدينة دمشق ومعه عائلته وأهله وإخوانه وحاشيته ليستقر بقلعة الكرك، التي أصبحت عاصمة مملكته.[١٨]

## تسليم مدينة القدس للفرنجة

إذا كان تنافس أبناء صلاح الدين في شأن المُلك دفعهم إلى البحث عن مهادنة الفرنجة في فلسطين، وأدى بهم أحياناً إلى محاولة الاستعانة بهم على التصدي بعضهم لبعض، فإن الأمر بلغ ذروة غير مسبوقة في عهد الملوك من أبناء الملك العادل الأيوبي. إذ لم تقتصر علاقاتهم بالفرنجة الجاثمين على أرض فلسطين ولبنان وسورية على المسالمة والمهادنة فحسب، بل تعدت ذلك أيضاً إلى التخلي عن فريضة الجهاد ضد الأوروبيين الغزاة، والتي لولاها لما وضعوا التيجان على رؤوسهم وتربعوا على عروش مصر وبلاد الشام. إذ بات أبناء الملك العادل وورثة عرشه يرون في الفرنجة قوة سياسية إقليمية لا يتورعون عن مهادنتها والتحالف معها في مقابل تنازلات إقليمية من دار الإسلام، إمّا ثمناً للحفاظ على عروشهم وكراسيهم، وإمّا تعززاً بهم لتصفية الحسابات الصغيرة فيما بينهم، وإمّا لتحقيق مطامح إقليمية في دول بعضهم البعض، وما أشبه الليلة بالبارحة.

بلغت هذه السياسة منتهاها حين طالت تنازلات ملوك العهد العادلي مدينة القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، التي لم يدخر العرب والمسلمون في تحريرها الدم والعرق والأموال طوال ما يقرب من قرن من الزمان، وكانت تعتبر، ولا تزال، واسطة العقد في فتوحات السلطان صلاح الدين الأيوبي.

صحيح أن الملك الكامل، سلطان مصر، هو الذي أبرم صفقة التنازل عن مدينة القدس مع الإمبراطور فردريك الثاني، إمبراطور الدولة الرومانية، سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، إلاّ إن انفراده بهذا القرار لم يكن لينفي التهمة ذاتها عن باقي إخوته الملوك، لأنهم كانوا على استعداد لاقتراف الجرم نفسه فرادى أو مجتمعين قبل أن أقدم أخوهم على فعلته. فقبل ثمانية أعوام من ذلك التاريخ، وفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، حين استولى الفرنجة على مدينة دمياط المصرية وبعد حصارهم المنصورة، وحين أخذوا يتحفزون للانقضاض على مدينة القاهرة وباقي البلاد المصرية، تبودلت الرسائل بين الملوك الأيوبيين والفرنجة، وكان مع الكامل آنذاك أخواه الملك المعظم عيسى، ملك الشام، والملك الأشرف موسى، ملك دمشق، وعرضوا على الفرنجة

الجلاء عن مدينة دمياط، والتخلي عن عزمهم على مهاجمة القاهرة لقاء تنازل الأيوبيين عن مدينة القدس وعسقلان وطبرية وجميع ما حرره السلطان صلاح الدين من أرض الساحل في فلسطين ولبنان، بما في ذلك ميناءا جبلة واللاذقية في سورية. رفض الفرنجة هذا العرض واشترطوا تسليمهم أيضاً قلعتي الكرك والشوبك، وبعد أخذ ورد وافق الملوك الأيوبيون على تسليمهما أيضاً. لكن المفاوضات لم تتم بشأن هذه الصفقة لأن الفرنجة أضافوا في اللحظة الأخيرة شرطاً جديداً، يقضي بأن يدفع الأيوبيون مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دينار (وقيل في رواية ٥٠٠,٠٠٠ دينار) في مقابل إعادة ترميم أسوار مدينة القدس وأبراجها التي كان الملك المعظم عيسى أمر بهدمها تحسباً لسقوط المدينة في أيدي الفرنجة حين شرعوا في الهجوم على دمياط.[١٩]

## الملابسات التي أدت إلى التسليم

أشرنا أعلاه إلى ما أسفرت عنه المطامح الإقليمية التي أبداها الملك المعظم عيسى إلى ضم المناطق التابعة لولاية حماة كالمعرة وسلمية، من تفجير الخلاف بينه وبين أخويه الملك الكامل والملك الأشرف. ثم ما تبع ذلك من إجبارهما له على الانسحاب من البلاد التي سبق أن احتلها، وهو ما أجج في صدره الغيظ ضدهما حتى أخذ يبحث عن حلفاء وجدهم ممثلين في الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وفي السلطان جلال الدين ابن الملك خوارزم شاه، ملك خوارزم، الذي كان يوسع نفوذه وحدود مملكته غرباً إلى درجة أنه أصبح يهدد الولايات الشرقية للمملكة الأيوبية التي كانت جزءاً من مملكة أخيه الملك الأشرف موسى. ودخلت اتصالات المعظم عيسى بسلطان خوارزم مرحلة متقدمة من التحالف الفعلي حين وعده أن يخطب له على منابر الشام ويضرب السكة (العُملة) باسمه. فقام السلطان بإرسال الخلعة السلطانية إلى المعظم، الذي طاف شوارع دمشق وسككها مرتدياً إياها، وأعلن من ثم قطع الخطبة لأخيه الملك الكامل. ولمّا شعر الملك الكامل بالخطر، الذي يمثله تحالف أخيه مع سلطان خوارزم، لجأ إلى الاستعانة بالإمبراطور فردريك الثاني وطلب منه الحضور بجيشه إلى أرض الفرنجة على الساحل الفلسطيني ليعينه على مخاطر حلف أخيه مع ملك خوارزم. وترغيباً للإمبراطور في سرعة الحضور، عرض عليه الملك الكامل تسليمه مدينة القدس، التي كانت استعادتها من أيدي المسلمين مذ حررها صلاح الدين مطمح كل مسيحي أوروبي وكل ملك من ملوكها وأمرائها. وإمعاناً في هذا الترغيب اشتمل الوعد الذي حمله الأمير فخر الدين ابن الشيخ، رسول الملك الكامل، على تسليم الإمبراطور بقية الفتوح الساحلية التي أحرزها السلطان صلاح الدين.[٢٠]



كان الإمبراطور فردريك الثاني قليل الحماسة للقيام بحملات صليبية كغيره من ملوك أوروبا الذين سبقوه، وكان تعرض للوم والاتهام من جانب الكرسي البابوي في روما بسبب الفتور الذي أبداه، بل إنه تعرض في إحدى مراحل نزاعه مع الكنيسة لعقوبة الحرمان البابوي. فلمّا وصلت عروض الملك الكامل إلى بلاط الإمبراطور في بالرمو في صقلية، رأى أن الفرصة أصبحت مؤاتية للقيام بحملة صليبية كي ينفي عن نفسه صفة المسيحي العاق التي ألصقتها به سياسة الكنيسة وقراراتها. ولذلك قرر الخروج في هذه الحملة (الحملة الصليبية السادسة) قاصداً ميناء عكا. فعرج على جزيرة قبرص ولم يصل إلى ميناء عكا إلاّ بحلول أيلول/سبتمبر ١٢٢٨. أمّا الجماعات الأوروبية التي انضوت تحت لواء الإمبراطور وسبقت وصوله إلى عكا، فكانت قليلة العدد، ولم يكن في قدرتها إحداث تغيير في ميزان القوى في فلسطين، ولذا اقتصر نشاطها على أعمال الترميم لحصون بعض المدن الساحلية، مثل تحصينات في قيسارية ويافا، وقلعة القرين القريبة من قرية معليا في الجليل الغربي. أمّا أبرز ما فعله صليبيو هذه الحملة فكان إعادة ترميم أسوار مدينة صيدا اللبنانية، واستولوا على حصة المسلمين في نصف خراج أراضي المدينة، والتي نصت عليها اتفاقية الصلح التي عقدت مع صلاح الدين.

كان وصول الإمبراطور إلى ميناء عكا متأخراً، فقد وصل بعد ما يقرب من عام كامل على وفاة الملك المعظم عيسى الذي كان يشكل تهديداً على مملكة أخيه الملك الكامل، وهو ما حدا الأخير على الاستعانة بالإمبراطور واستدعاء حضوره وحضور عساكره إلى فلسطين. وبموت المعظم عيسى لم يتم زوال الخطر الذي خشيه الملك الكامل فحسب، بل أيضاً أن الكفة رجحت تماماً لمصلحته، وباتت مملكة دمشق التي أورثها المعظم عيسى لابنه الناصر داود تترنح تحت تهديد الملك الكامل الذي كانت قواته تحاصر مدينة دمشق قاعدة هذه المملكة.

كان الملك الكامل لا يزال في معسكره في تل العجول حين جاءه رسول الإمبراطور يحمل الهدايا النفيسة، ويطالبه بالوفاء بوعده تسليم مدينة القدس، لكنه أخذ يماطل ويسوّف. وطالت مدة تبادل السفراء والرسل بين الطرفين إلى أن بلّغ الملك الكامل الرسل، في آخر المطاف، إحجامه عن الوفاء بالوعد، إذ ليس هناك من سبب وجيه يوجب تسليم القدس، لأن المساعدة العسكرية التي طلبها ثمناً للتنازل عنها لم تأت في وقتها، بل إنه لم يعد بحاجة إليها بعد أن تغيرت المعطيات على الساحة السياسية بعد زوال خطر المعظم عيسى. وفوق ذلك كله فإن القيام بخطوة متطرفة كهذه ستحدث زلزالاً في موقف المسلمين وتؤذي مشاعرهم الدينية. وفي أثناء فترة الاتصالات وتبادل السفراء هذه ترك الإمبراطور عكا وتوجه إلى ميناء يافا وباشر أعمال

تحصين أسوار المدينة وقلعتها ودفاعاتها، وكان يتلقى في الوقت نفسه تقارير عما يجري في أوروبا، وخصوصاً موقف البابا منه ومن حملته، فقد أصدر ضده قراراً ثانياً يعلن الحرمان البابوي عليه، وأنه أصبح صاحب حق الوصاية على الإمبراطورية. أقلقت هذه الأخبار الإمبراطور وأحس بضرورة العودة إلى بلاده. لكنه كان يعلم بأن عودته صفر اليدين ستزيد أوضاعه حرجاً، ولذلك غير أسلوب مخاطبته للملك الكامل، ولجأ إلى أسلوب التذلل والاستعطاف، حتى قيل إنه بكى أمام رسول الكامل، الأمير فخر الدين ابن الشيخ صدر الدين ابن حموية، قائلاً: «لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم.»[٢١]

لم يلبث هذا الأسلوب من الاستعطاف الذي انتهجه الإمبراطور أن وجد آذاناً صاغية عند الملك الكامل، وبالتالي كان له أثر في قراره بالاستجابة لمطلبه. وعلى المرء في هذا المقام ألاّ يتغافل عن الاعتبارات السياسية الأُخرى التي أخذها الملك الكامل في الحسبان. ففي مقابل وصمة العار التي ستلطخ جبينه بسبب تسليمه مدينة القدس لأعداء الإسلام، مع ما ينطوي عليه من مس بمشاعر المسلمين، كان هنالك بعض الاعتبارات السياسية التي تدخلت في حسم هذا الأمر. فحرب الكامل ضد ابن أخيه، الناصر داود، ما زالت محتدمة ولم تحسم بعد. وهناك الملك الخوارزمي السلطان جلال الدين الذي يشكل تهديداً استراتيجياً على مملكة الأيوبيين، لأن احتمالات دخوله الحلبة السياسية ما زالت واردة بسبب استنجاد الناصر داود به لإنقاذ عرشه المهدد. وسيؤدي رفض الملك الكامل تسليم القدس، والوفاء بوعده للإمبراطور، إلى أن يقوم الأخير بتأليب مختلف القوى والمجموعات الفرنجية في فلسطين وحشدها للبدء بجولة جديدة من الغارات والهجمات على أرض مملكة الكامل، وجرّاء ذلك كله سيكون هو ومملكته هدفاً لثلاثة أعداء في آن واحد. وهكذا عززت هذه الاعتبارات والحسابات السياسية الرأي بضرورة الاستجابة لمطلب الإمبراطور الفرنجي، فردريك الثاني، وهو ما تمخض عنه عقد اتفاقية الصلح في يافا في ١٢ شباط/ فبراير ١٢٢٩.

أثار تسليم مدينة القدس للفرنجة موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي. وكانت ردة الفعل شديدة، وخصوصاً عند أهل المدينة. فوصف أحد المؤرخين ذلك بقوله: «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأَذّنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك. وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم. وقيل لهم: 'امضوا إلى حيث شئتم'.» وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد



الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار. واستغل خصومه فعلته تلك وبالغوا في التشنيع عليه. وكان على رأسهم ابن أخيه الملك الناصر داود، ملك دمشق، إذ استعان بالفقيه الشامي المشهور ابن الجوزي الذي عقد مجالس الوعظ التي عدّد فيها فضائل بيت المقدس وصوّر عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين. وإزاء حملة الاستنكار والتشنيع التي عمت بلاد المسلمين، حاول الملك الكامل أن يدافع عن نفسه محاولاً التقليل من فظاعة الحدث الذي جنته يداه. فروي عنه قوله: «إنا لم نسمح له إلاّ بالكنائس وأُدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه.»[٢٢]

ولعل من المفارقة أن نشير إلى ما أحدثه تسلم مدينة القدس وإعادتها إلى حظيرة المسيحية من استنكار واستياء يصل إلى درجة الغضب لدى الأوساط الفرنجية، الدينية منها والدنيوية في بلاد المشرق. فرأى بعضهم أن كرامة النصرانية كانت تقضي بأن تنتزع المدينة عنوة بحد السيف من أيدي المسلمين لا عن طريق الاستخذاء والتذلل التي توسل بها الإمبراطور إلى الملك الكامل. وكانوا يرون أن استيلاء الصليبيين على المدينة من دون استيلائهم على مقدسات المسلمين هو أمر مرفوض لا تقبل به نفوس الفرنجة الأبيّة. وذهبت فئة صليبية أُخرى إلى القول بإن الحصول على القدس من دون استعادة الكرك والشوبك والأردن لا قيمة له، ولو كان هذا الأمر مقبولاً لقبل الصليبيون ما عرضه عليهم المسلمون أيام حصار دمياط. ورأى فرسان الداوية والإسبتارية في فلسطين والمشرق أن أي إنجاز يحصل عليه الإمبراطور المغضوب عليه من جانب الكنيسة والمطرود من رحمتها هو إنجاز غير شرعي. أمّا الأمراء الصليبيون فأغضبهم استبداد الإمبراطور بالرأي من دونهم، وإعلانه نفسه ملكاً على عرش مملكة القدس اللاتينية من دون مشاركتهم في القرار. فليس غريباً وهذا حال ردات الفعل الصليبية أن يوقّع بطرك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان ضد المدينة المقدسة نفسها وضد من فيها من المسيحيين، إذا قاموا باستقبال الإمبراطور المحروم من الكنيسة.[٢٣]

## اتفاقية يافا

عقدت اتفاقية يافا بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني تحت إطار هدنة عامة بين المسلمين والفرنجة، لمدة عشرة أعوام وخمسة أشهر وأربعين يوماً تبدأ بـ ١٨ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ ١٤ شباط (فبراير) ١٢٢٩م. إلاّ إن جوهر هذه الاتفاقية كان يصب

حول مدينة القدس وما ارتبط بها من مقدسات وقرى وشؤون إدارية، فنصت على ما يلي:

(١) تسلم القدس للإمبراطور على أن تظل أسوار المدينة وتحصيناتها خراباً وألاّ تجدد الأسوار.

(٢) ألاّ يكون للفرنج موطئ قدم خارج مدينة القدس، وأن تظل قرى بيت المقدس في أيدي المسلمين.

(٣) قرى بيت المقدس والضاحية يديرها وال مسلم، وتكون البيرة مقراً له.

(٤) يظل الحرم الشريف بما فيه من المعالم، كالصخرة والمسجد الأقصى، في أيدي المسلمين، ويظل شعار الإسلام فيه ظاهراً.

(٥) ألاّ يسمح للإفرنج بدخول القدس إلاّ بغرض الزيارة. ويكون المتولون على الأماكن المقدسة من المسلمين.

(٦) تكون القرى الواقعة على الطريق بين القدس وكل من عكا ويافا تحت إدارة الفرنجة لحماية أرواح الحجاج وضمان سلامتهم (بلغ عدد هذه القرى عشر قرى).(٢٤)

## التطورات السياسية بين تسليم القدس وتحريرها الثاني سنة ١٢٣٩

تميزت الأعوام العشرة التي أعقبت تنازل الملك الكامل عن مدينة القدس بالهدوء السياسي على الساحة الفلسطينية. فبعد أن أُخرج الملك الناصر داود من دمشق واستقر بقلعة الكرك، كملك على الأردن وبعض أجزاء من فلسطين الوسطى، نابلس وبعض نواحي القدس، أبدى علامات الرضا عن عمه الكامل التي انعكست بإهدائه قلعة الشوبك. وأخذ مناخ العلاقات الحسنة يتعمق بين الطرفين، كما تدل على ذلك المصاهرة بينهما حين زوّج الملك الكامل ابنته عاشوراء للناصر داود. أمّا الأشرف فتنازل عن طيب خاطر عن بعض أجزاء مملكته في المشرق لقاء فوزه بعرش دمشق بعد أن نصبه الملك الكامل ملكاً عليها.

وعلى صعيد العلاقة الأيوبية - الفرنجية لم تشهد هذه الفترة أي نشاط معاد لافت للنظر لأي من الطرفين تجاه الطرف الآخر. يعود ذلك بالضرورة إلى الاضطراب السياسي الذي حل في أوساط مملكة بيت المقدس الصليبية بعد أن رحل الإمبراطور فردريك الثاني. حتى إن عرش المملكة ظل من دون ملك حتى سنة ١٢٦٨. أمّا الأيوبيون، الملك الكامل وإخوانه وباقي أمراء الشام، فقد شغلتهم الصراعات الداخلية



من ناحية، وخوفهم من الخطر الخوارزمي الذي يهدد المملكة من الشرق من ناحية أُخرى، عن استغلال الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنجة، فأمضوا تلك السنين في ترتيب الأوضاع الداخلية بين أمراء الأسرة، وفي تعزيز قبضتهم على الولايات الشرقية التي باتت عرضة للاجتياح من جانب ملك خوارزم جلال الدين شاه بعد أن استطاع أن ينتزع مدينة خلاط التي كانت جزءاً من مملكة الأشرف ابن العادل. وبسبب الخطورة التي يمثلها التهديد الخوارزمي قام الملك الكامل نفسه بتحمل أعباء جبهة المشرق، فاستبعد أخاه الأشرف الذي أظهر قسطاً كبيراً من الفشل في حمايتها، وتركه ملكاً على دمشق يمضي أوقاته في اللهو والعبث. فكان الملك الكامل يكثر من الخروج بجيشه من القاهرة متجهاً إلى المشرق، ولم تكن تمضي سنة واحدة من دون أن يقوم بحملة عسكرية إلى تلك النواحي يرافقه ابنه البكر، الملك الصالح أيوب، الذي عيّنه نائباً عنه في منطقة آمد بعد أن صرفه عن ولاية العهد ونيابته في القاهرة، ليعطي ابنه الأصغر الملك العادل (الثاني) هذا المنصب.(٢٥)

ثم ما لبث الملك الأشرف أن بدأ يستعد للرد على سياسة التهميش التي اتبعها معه أخوه الملك الكامل، والتي تمثلت بصورة خاصة في تجريده من أملاكه في ولاية المشرق. فأقام تحالفاً تشكّل من أمراء بلاد الشام ضد أخيه وسياسة الاحتواء التي مارسها. وكان ذلك بالتنسيق مع الملك السلجوقي غياث الدين كيخسرو، الذي كان منزعجاً من بسط نفوذ الكامل في مناطق الجزيرة وديار بكر وأذربيجان. علم الملك الكامل بهذا التحرك بعد أن بلّغه أمير حماة به، فأخذ يستعد لمهاجمة دمشق لانتزاعها من الأشرف. فاستدعى الناصر داود، ملك الكرك، إلى القاهرة ليكون حليفه ضد الأشرف وتحالفه. ولمّا قدم إلى القاهرة قلّده عرش دمشق، بعد أخذها من الأشرف. وكإجراء انتقامي على انضمام الناصر داود إلى معسكر الملك الكامل، أغار الملك الأشرف على مدينة نابلس، وكانت جزءاً من مملكة الكرك في ذلك الوقت، ونهب خزائن المال التابعة للناصر داود. في هذه الأثناء وقبل أن يخرج الكامل من القاهرة مات الملك الأشرف، رأس التحالف الشامي، فورثه على عرش دمشق أخوه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل، بناء على وصية سابقة، لأن الملك الأشرف لم يخلف أبناء ذكوراً. فقام الملك الجديد على رأس التحالف السابق، الذي لم يصمد أمام جيش الكامل حين وصل إلى دمشق. فتنازل الصالح إسماعيل عن دمشق وسلمها للملك الكامل وعُوّض عنها مدينة بعلبك. لم يف الكامل بوعده للناصر داود بعرش دمشق، فأخذ يتهيأ للعودة إلى الكرك. وشاءت الأقدار أن يلقى الكامل حتفه بعد قليل من دخوله دمشق في ٢١ رجب ٦٣٥هـ/ ٩ آذار (مارس) ١٢٣٨م. فقرر الأمراء الموجودون في دمشق أن يبايعوا ابنه الملك العادل سلطاناً على مصر والشام، وأن

ينوب عنه في دمشق الملك الجواد ابن مودود ابن الملك العادل. أزعج هذا الأمر الناصر داود الذي كان يأمل بعرش دمشق، كما أزعج الصالح أيوب ابن الكامل الذي رأى في نفسه الأحق بمُلك أبيه. لكن نائب دمشق الجديد الملك الجواد وبعد اتصالات سرية جرت بينه وبين الصالح أيوب ابن الكامل، الذي كان يتولى أعماله في حصن كيفا في المشرق، تنازل عن عرش دمشق في مقابل ولاية سنجار، فقدم الصالح أيوب وتولى عرش دمشق. واتصل به أمراء مصر واستدعوه لتولي السلطنة بدل أخيه الملك العادل الثاني، فترك دمشق واستخلف ابنه الملك المغيث نائباً عنه فيها. أقام الصالح أيوب بنابلس ينتظر انضمام عمه الصالح إسماعيل النائب في بعلبك ليخرجا معاً إلى مصر. ولم يكن يعلم بأن عمه يخطط للوثوب على عرش دمشق الذي انتزعه منه أخوه الكامل، ولذا أخذ يماطل في الوصول إلى نابلس. ثم ضرب ضربته على حين غرة واستولى على دمشق وسجن الملك المغيث ابن الصالح أيوب. ولمّا سمع أمراء جيش الصالح أيوب بما حدث بدأوا بالتفرق عنه حتى بقي في نفر قليل من غلمانه وحرسه الشخصي.

وعندما استولى الصالح أيوب على دمشق، وحدث الانقسام بينه وبين أخيه الملك العادل، توجه الناصر داود، ملك الكرك، إلى مصر وأعلن تأييده للعادل ضد أخيه. ولمّا آل أمر الصالح أيوب إلى ما آل إليه وهو في نابلس أرسل الناصر داود كوكبة من فرسانه قبضوا عليه وحملوه إلى الكرك ليعتقله عنده في القلعة.(٢٦)

## الناصر داود والتحرير الثاني للقدس

انتهى أجل الصلح الذي نصت عليه اتفاقية يافا بين الملك الكامل، سلطان مصر، وبين الإمبراطور الفرنجي فردريك الثاني بحلول السنة العاشرة من الهدنة بين الطرفين في سنة ١٢٣٩. وكانت مملكة بيت المقدس لا تزال تعاني جرّاء آثار الاضطراب السياسي الذي أصابها بعد رحيل الإمبراطور عائداً إلى صقلية. وظل عرش المملكة شاغراً مع حلول هذه السنة. ومع ذلك ظلت مدينة القدس في أيدي الفرنجة، منذ أن سلمت لهم قبل عشرة أعوام، وكانت لا تزال من دون أسوار وتحصينات التزاماً ببنود الاتفاقية الآنفة الذكر، الأمر الذي جعلها هدفاً سهلاً أمام أي محاولة إسلامية لاستعادتها. ولمّا قاربت فترة الهدنة على نهايتها قام الصليبيون، مستغلين انشغال الحكام الأيوبيين بصراعاتهم الداخلية، بعمليات ترميم أسوار مدينة القدس وأبراج قلعتها التي لم يكن قائماً منها سوى برج داود بعد أن تركه المعظم عيسى سالماً ولم يدمره حين أمر بهدم أسوار المدينة وتحصيناتها في إبان أزمة دمياط. وقد



ترافق الإجراء الفرنجي هذا مع وصول الحملة الصليبية الفرنسية التي خرجت في هذه السنة استجابة للدعوة البابوية، التي انطلقت من كنيسة الحبر الأعظم في روما، إلى تجنيد رعاياها الأوروبيين من أجل الحفاظ على سيطرة الصليبيين على مدينة القدس. هذه الحملة التي انخرط فيها أربعة من كبار أمراء المقاطعات الفرنسية، وعلى رأسهم أمير مقاطعة شامبين ثيوبولد الرابع.(٢٧)

كانت التبعية الإدارية لفلسطين الأيوبية في هذه الفترة الزمنية بعهدة الملك العادل الثاني، ابن الملك الكامل، سلطان مصر، والذي كان يدير الشريط الساحلي جنوبي يافا من عسقلان حتى العريش، بينما كانت المناطق الداخلية بعهدة الملك الناصر داود، ملك الكرك وفلسطين. كانت الترميمات التي أجراها الفرنجة في القدس خرقاً صريحاً لاتفاقية صلح يافا المذكورة، وعلى الرغم من ذلك لم يتحرك أحد من الملوك الأيوبيين سوى الناصر داود للتصدي لهذا الخرق. فقد كان الصالح إسماعيل ابن الملك العادل يعزز قبضته على عرش دمشق بعد أن استلبه من ابن أخيه الصالح أيوب، ويُجند من حوله أمراء الشام الأيوبيين من أجل هذه الغاية، بينما كان العادل الثاني ابن الملك الكامل يعد العدة في مصر للتصدي لمحاولات أخيه الصالح أيوب، المعتقل في قلعة الكرك، لانتزاع عرش مصر منه. وعندما نما إلى علم الناصر داود بعمارة قلعة القدس، توجه على رأس جيشه وحاصر المدينة ورماها بالمنجنيق حتى دخلها عنوة بعد ٢١ يوماً من الحصار. وتحصن المدافعون من الصليبيين في برج داود فحاصرهم وضيق عليهم حتى أذعنوا له بعد أن منحهم الأمان، وذلك في أواسط جمادى الأولى ٦٣٧هـ/كانون الأول (ديسمبر) ١٢٣٩م، بعد أن ظلت المدينة تحت سيطرة الفرنجة ما يقرب من ١١ عاماً، ثم جعلها مقراً له.(٢٨)

كان تحرير القدس صدمة فاجأت قادة الحملة الفرنسية الذين كانوا يجمعون شمل عساكرهم في ميناء عكا. فلمّا اجتمع هؤلاء القادة لتدبر الأمر انقسموا على أنفسهم؛ فرأى بعضهم أن تُوجه الحملة إلى مصر للاستيلاء على أحد الميناءين دمياط أو الإسكندرية، كي يقايضوا به مدينة القدس. وذهب رأي آخر إلى ضرورة التوجه نحو دمشق. ودعا رأي ثالث إلى احتلال صفد لإعادتها قاعدة داخلية للصليبيين تنطلق منها هجماتهم على عمق البلاد الإسلامية. وطلب رأي رابع أن توجه حملتهم إلى القدس ذاتها. وبالتالي لم يعتمد أي من الآراء الأربعة، فتوجهت حملة نحو مدينة عسقلان من أجل تدمير تحصيناتها تمهيداً لغزو دمشق. ولمّا سمع العادل الثاني، سلطان مصر، بذلك أرسل قوة عسكرية للدفاع عن عسقلان، حيث استطاع المسلمون تمزيق المهاجمين الصليبيين وإلحاق كارثة بهم. فعاد الناجون من الموت أو الأسر فارين بأرواحهم إلى عكا.(٢٩)

## القدس تُسلَّم للفرنجة مرة ثانية

عندما حرر الملك الناصر داود بيت المقدس من أيدي الصليبيين، كان الصالح أيوب ابن الملك الكامل لا يزال معتقلاً عنده في قلعة الكرك، منذ اعتقله وهو في نابلس يَستعد للتوجه إلى مصر لعزل أخيه العادل الثاني عن عرشها. ولم يستجب الملك الناصر لطلب العادل تسليمه أخاه، لأنه كان يرى فيه ورقة رابحة يستطيع استخدامها في الوقت المناسب. وغني عن الذكر أن سياسة الناصر داود كانت تتمحور حول هدف استراتيجي واحد ووحيد هو استعادة عرش دمشق الذي استلبه منه عماه الملك الكامل والملك الأشرف.

في أواخر رمضان ٦٣٧هـ/ نيسان (أبريل) ١٢٤٠م، أفرج الناصر داود عن الصالح أيوب بعد سبعة أشهر من الأسر، واستدعاه ليلتحق به، وكان حينها في مدينة نابلس، ثم أعلن بيعته بالسلطنة للصالح أيوب، وأمر بالخطبة له بعد أن قطع الخطبة لأخيه العادل الثاني. ولدى انتشار خبر هذه البيعة أخذ أنصار الصالح أيوب ومماليكه يتوافدون إلى نابلس لوضع أنفسهم في خدمته وفي تصرفه. فخرج الناصر داود ومعه الصالح أيوب، مرشحه لسلطنة مصر، إلى بيت المقدس حيث عقدا حلفاً بينهما عند الصخرة المشرفة عرف باسم حلف الصخرة، تقتسم بموجبه المملكة الأيوبية بينهما، فتكون مصر للصالح أيوب، وتكون بلاد الشام وبلاد المشرق للناصر داود بعد أن يعاد له عرش مدينة دمشق.[٣٠]

كانت مبايعة الناصر داود للصالح أيوب خطوة انتقامية من العادل الثاني، سلطان مصر، بعد أن أخل بوعد كان قطعه على نفسه بإعادة الناصر إلى عرش دمشق، إذ إنه بارك استيلاء عمه الصالح إسماعيل على عرشها حين كان الصالح أيوب في نابلس.[٣١]

بعد عقد حلف الصخرة خرج الحليفان نحو مصر وعسكرا بالقرب من مدينة غزة انتظاراً لوصول المؤيدين والأنصار. وإزاء هذه الحركة أخرج العادل الثاني جيشاً من مصر للقضاء على عسكر الحليفين، فأقام معسكره في بلبيس على الطريق إلى غزة، وكتب إلى عمه الصالح إسماعيل، ملك دمشق، ليرسل جيشاً نحو فلسطين، كي يضعا جيش الحليفين الخصمين بين فكي الكماشة، بين جيش مصر وجيش دمشق. وخوفاً من الوقوع في هذا الشرك لم يجد الحليفان، الناصر داود والصالح أيوب، بداً من ترك غزة والتراجع شمالاً، إذ عادا إلى مدينة نابلس وأخذا ينتظران ما سيحدث وهما في حيرة من أمرهما. ويروي المؤرخ ابن واصل في هذا الصدد أنه بينما كان الصالح أيوب يقف على جبل الطور/ جرزيم إذ بنجاب يأتيه بكتاب أرسله قادة من



عساكر مصر يستدعونه فيه إلى مصر ليولوه السلطنة. وكان عسكر مصر انقلبوا على العادل الثاني واعتقلوه في المعسكر الذي أقاموه في بلبيس. ثم توالت بعد ذلك رسائل أُخرى من قادة مصريين آخرين يلحون عليه في سرعة الوصول إلى القاهرة.

لم يطل انتظار الصالح أيوب في نابلس، فوصل إلى مصر يصحبه الملك الناصر داود حليفه، وتسلم سلطنة مصر، وتلقى بيعة العساكر والأعيان فيها، فتمت له السيطرة على مقاليد الأمور. وكما تنكر العادل الثاني لوعوده التي قطعها من قبل للناصر داود، تنكر كذلك حليفه الجديد الصالح أيوب للوعد الذي قطعه له بمقتضى حلف الصخرة. وفسر حنثه بوعده أنه إنما حلف اليمين مكرهاً عندما كان في الأسر. ولم يقتصر موقف الصالح أيوب على عدم الوفاء بتنفيذ الاتفاق فقط، بل تعداه إلى التهديد والوعيد، إذ سرّب إلى الناصر داود، عن طريق بعض المقربين منه، أنه بصدد القبض عليه ووضعه في السجن. فعاد الناصر داود على جناح السرعة إلى فلسطين بعد أن استأذن مضيفه في السفر. وكانت بلغته أيضاً أمور أزعجته بعد أن قام الفرنجة بتحريض من الصالح إسماعيل، ملك دمشق، بالإغارة على مدينة نابلس فنهبوها وأسروا بعض أهلها حتى إنهم سلبوا منبر مسجدها.[٣٢]

انضم الناصر داود بعد رجوعه إلى فلسطين إلى التحالف المعادي للصالح أيوب، والذي كان يقف على رأسه الصالح إسماعيل، ملك دمشق. فلمّا أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى فلسطين اشتبك جيش الناصر داود معه قرب مدينة القدس، وأوقع في جيش مصر هزيمة بعد أن أسر بعض قادته.

كان حلف ملوك الشام الأيوبيين قائماً منذ أن استولى الصالح إسماعيل على دمشق، وازدادت الحاجة إلى استمراره بعد أن فُقد جناحه الغربي حين استولى الصالح أيوب على مصر. فرأى زعماء هذا الحلف ضرورة سد النقص الذي نتج من خروج مصر من المعادلة، وأجروا اتصالاً بالفرنجة في فلسطين لضمهم طرفاً إلى هذا الحلف. كانت قوة الفرنجة العسكرية متواضعة في هذه المرحلة، لكن وجود الأمير ثيوبولد الرابع، أمير شامبين، في عكا حول الفرنجة إلى قوة ذات حيوية، إذ كان في تصرفه ما يقرب من ٥٠٠٠ محارب من الفرسان، بالإضافة إلى عدد مماثل من المشاة.

ونظراً إلى حرص الصالح إسماعيل على ضم الفرنجة إلى تحالفه المعادي للصالح أيوب، سلطان مصر، فإنه أظهر سخاء غير مسبوق كي يوافقوا على الانضمام إلى الحلف. إذ وعدهم بالتنازل عن أجزاء من لبنان، بالإضافة إلى حصة المسلمين في خراج مدينة صيدا. وفي فلسطين كان حجم التنازل كبيراً إلى حد لم يكن يحلم به الفرنجة. فبالإضافة إلى الجليل وطبرية وعسقلان على الساحل، فإنه تنازل لهم عن

مدينة القدس بمزاراتها كافة، ما خلا منطقة الحرم الشريف، علماً بأن بعض الشهادات العينية، التي أدلى بها المؤرخ جمال الدين ابن واصل، يؤكد أن الحرم لم يكن محظوراً عليهم، الأمر الذي تسبب بجرح مشاعر المسلمين. وشملت قائمة التنازلات عدداً من القِلاع المهمة التي سبق أن حررها السلطان صلاح الدين، مثل صفد وطبرية وتبنين وشقيف أرنون وهونين وتيرون، وكانت في هذا الوقت مدمرة، لكن كان من السهل تحويلها إلى قلاع حصينة بعد شيء من الترميم، وهو ما فعله الفرنجة بالنسبة إلى بعضها.

وعلى هامش هذه التنازلات «الحاتمية» فإن الصالح إسماعيل سمح للفرنجة بارتياد أسواق دمشق واقتناء الأسلحة من ورش السلاح. وإزاء هذا التفريط بالأرض المقدسة وبفتوحات صلاح الدين الأُخرى، قامت ضجة شعبية عارمة تزعمها فقيه دمشق وبلاد الشام الإمام الشافعي عز الدين بن عبد السلام وفقهاء آخرون. فأصدر فتوى تحرم بيع الأسلحة للصليبيين، ثم قطع الخطبة للصالح إسماعيل، إذ امتنع من ذكر اسمه فيها. فأمر الصالح إسماعيل بعزل هؤلاء عن وظائفهم، ثم بنفيهم عن بلاد الشام إلى مصر.[٣٣]

ولعل أطرف ما ذكر في هذا الصدد ما يرويه المؤرخ ابن شداد في «الأعلاق الخطيرة» عما حدث عندما تقدم الفرنجة لاستلام شقيف أرنون (أو قلعة بوفور). فقد رفض قائد القلعة الأيوبي أن يسلمها للقائد الصليبي بارون صيدا، ولمّا بُلّغ الملك الصالح إسماعيل بذلك استدعى قائده إلى دمشق وأنزل به عقوبة الإعدام. لكن المسألة لم تنته عند هذا الحد، فقد رفض نائب قائد القلعة، شهاب الدين أحمد الشقيفي، هو الآخر أن يسلم القلعة للفرنجة، وكتب رسالة إلى الملك الناصر داود يطلب منه النجدة، فأسرع الأخير بإرسال راياته لترفع على القلعة إشعاراً بأن ملكيتها عائدة إليه وأنها بحمايته، لكنه لم يكن في وضع يمكنه من تقديم العون الفعلي للعساكر المدافعين عنها. وعندما رأى الصالح إسماعيل إصرار جنوده على رفض التنازل عن القلعة، اضطر إلى إرسال جيش من دمشق لمحاصرتها؛ عندها سلم القائد وجنوده القلعة لعسكر دمشق، لئلا يقال إنهم سلموها لعسكر الفرنجة.[٣٤]

حاول الفرنجة الاستفادة من طرفي النزاع الأيوبيين. فبعد أن أكملوا استلام المواقع التي تنازل عنها الصالح إسماعيل، اتصلوا بالصالح أيوب السلطان في مصر، وكان يمر، آنذاك، بأزمة ولاء من جانب قادته، فكان مستعداً لتقديم أي تنازلات للفرنجة يكسب بواسطتها ودهم. فسلمهم مدينة عسقلان والمناطق المجاورة لمدينة غزة، وأطلق لهم مئات الأسرى الإفرنج الذين كانوا في أسره، وشرعوا بعد ذلك في تحصين مدينة عسقلان. وفي أعقاب المعركة التي قادها التحالف الأيوبي – الفرنجي



بالقرب من غزة والهزيمة التي لحقت بالمتحالفين فيها، قرر زعيم الفرنجة ثيوبولد، أمير شامبين، مغادرة عكا إلى فرنسا. وترافقت عودته مع وصول الحملة الصليبية الإنكليزية التي قادها ريتشارد دو كورنواي، شقيق ملك إنكلترا وصهر الإمبراطور فردريك الثاني، وذلك في حزيران/يونيو ١٢٤٠. وقام ريتشارد على الفور باستئناف أعمال التحصين التي شرع فيها سلفه في عسقلان. وأرسل الصالح أيوب، ملك مصر، يعرض عليه معاهدة جديدة تكون مكملة للمعاهدة السابقة التي عقدها مع أمير شامبين الفرنسي. وتضمن عرضه هذه المرة استعداده للاعتراف بشرعية التنازلات التي قدمها خصمه الصالح إسماعيل للفرنجة، بحيث تصبح مناطق الجليل، وضاحيتا يافا وعسقلان، وكل نواحي مدينة القدس، بما فيها بيت لحم ومجدل يابا، بالإضافة إلى طبرية وصفد وقلعتي كوكب والطور، داخلة كلها في مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأن تبقى مدن نابلس وعسقلان وبيسان والخليل وأريحا في أيدي المسلمين. رحب الفرنجة بهذا العرض وعقدوا الاتفاقية مع الصالح أيوب في ربيع سنة ١٢٤١. وبعد أن عاد ريتشارد دو كورنواي إلى بلاده في أيار/مايو من السنة ذاتها، عاود فرسان الداوية أعمالهم العدوانية، لأنهم كانوا يعارضون المعاهدة مع المسلمين، وهاجموا بعض نواحي فلسطين، كنابلس والخليل. وعندما وصلت المفاوضات والوساطات التي كانت تجرى للمصالحة بين ملك مصر وكل من ملك دمشق وملك فلسطين إلى طريق مسدود، عاد الاستقطاب من جديد بين المعسكرين المتنافسين، وحاول الطرفان الأيوبيان في هذه المرحلة أيضاً خطب ود الفرنجة. فعرض عليهم كل طرف من جانبه تنفيذ الوعود المتعلقة بتسليمهم مدينة القدس مع إعطائهم الحق في تأدية شعائرهم الدينية داخل الحرم الشريف، وهو أمر لا سابقة له، إذ كان استثني الحرم الشريف في اتفاقية يافا التي عقدها الملك الكامل مع الإمبراطور. وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة وحلفاؤهم من أمراء الشام قد أقروا فعلاً بمبدأ استيلاء الفرنجة على الحرم الشريف، إذ استفاد الفرنجة من السياسة ذات الوجهين. لكن هذه السياسة لم تكن لتستمر إلى أمد بعيد، فعندما بلغ النزاع بين المتنافسين شفا الحسم، كان لزاماً على الفرنجة بأن يحسموا أمرهم مع أي طرف هم. وفي هذه المرحلة تغلب جناح فرسان الداوية الذين كانوا يرون ضرورة التحالف مع الأمراء الشاميين ضد ملك مصر. وهكذا اتخذ ملوك الشام وحلفاؤهم من الفرنجة القرار بغزو مصر، بعد أن وعدوا الفرنجة بحصة مجزية منها إذا ما استولوا عليها، إضافة إلى ما مُنحوه من أرض فلسطين والجنوب اللبناني.[٣٥]

## الخوارزمية يحررون القدس
## ويرجحون كفة الصالح أيوب

أغلق التحالف الأيوبي - الفرنجي ضد الصالح أيوب كل الأبواب أمامه لإيجاد حليف يقف إلى جانبه في بلاد الشام، اللهم إلاّ ملك حماة التي بقيت شبه جيب معزول تطوقه بلاد أعضاء التحالف. ولم يبق أمامه إلاّ مواليه من الخوارزمية ممن كانوا أعلنوا ولاءهم له عندما كان ينوب عن أبيه في الولايات الشرقية، وكأنه ادخرهم لمثل هذا اليوم. فأرسل إليهم كتاباً في أواخر سنة ٦٤١هـ/ حزيران (يونيو) ١٢٤٤م يستحثهم على الحضور. وكان المؤرخ جمال الدين ابن واصل قد وقف على نسخة عن هذا الكتاب وأورد ذكره. كان مبدأ العلاقة بين الصالح أيوب والمقاتلين الخوارزمية يعود إلى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م أيام ولايته على المشرق، بعد أن حولهم مقتل ملكهم جلال الدين ابن خوارزم شاه إلى قوى مبعثرة من المرتزقة يؤجرون سيوفهم لمن يدفع الأموال. ولمّا رأى الصالح أيوب فيهم هذه الطاقة العسكرية أراد أن يستفيد منهم في صراعاته ضد حكام الموصل وغيرهم من خصوم الدولة الأيوبية في المشرق وبلاد الجزيرة، فاستأذن أباه، الملك الكامل، في استخدامهم في صفوفه فأذن له في ذلك. لكن علاقاتهم به لم تتوثق إلاّ بعد أن قدم لهم الوعود بمنحهم إقطاعات في سنجار وحرّان والرها. ومن ثم صدقه الخوارزمية الولاء، وأخلصوا له النية، واستطاعوا أن يبعدوا عنه خطر عساكر الموصل.

ولمّا استلم الخوارزمية رسالة الصالح أيوب التي يدعوهم فيها إلى دعمه ونصرته خرجت طلائعهم في مستهل سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وقطعت نهر الفرات نحو بلاد الشام. وكان عددهم يربو على ١٠,٠٠٠ مقاتل، على رأسهم أربعة مقدمين أكبرهم المقدم حسام الدين بركة خان، وانضم إليهم مقاتلون أكراد عرفوا باسم القيمرية نسبة إلى بلدة قَيْمَر. وبعد أن اجتازوا نهر الفرات ودخلوا بلاد الشام انقسموا إلى فرقتين: واحدة أخذت طريق البقاع من تحت بعلبك، وأخذت الأُخرى طريق الغوطة، وأمعنوا في النهب والقتل والسبي، وعندما وصلت أخبارهم إلى مسامع الناس انزووا عن طريقهم ولاذوا بالفرار. حتى إن الصالح إسماعيل، ملك دمشق ورأس التحالف المعادي للصالح أيوب، استدعى قواته وكتائبه المنتشرة وتحصن داخل مدينة دمشق.

كانت مدينة القدس أول مدينة استهدفها الخوارزمية. ففر الناصر داود ومعه قواته، وكان مرابطاً على مقربة من المدينة، ودخل الكرك. أمّا قوات الفرنجة التي كانت ترابط فيها، فأسرعت في الانسحاب منها. فاقتحم الخوارزمية المدينة وبذلوا في أهلها من النصارى السيف من دون تمييز وأخذوا النساء والأطفال أسرى. ثم دخلوا



كنيسة القيامة ونبشوا القبور التي فيها، ومنها مرقد المسيح، وأحرقوا عظام الموتى. وبعد فراغهم من القدس توجهوا نحو مدينة غزة، وضربوا معسكرهم على مشارفها، ثم أرسلوا إلى الصالح أيوب يبلّغونه بوصولهم، فأرسل إلى قادتهم ومقدميهم الخلع والأموال والهدايا.

في هذه الآونة خرج من مصر جيشان: كان يقود الأول الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، مملوك الصالح أيوب الذي كان معتقلاً معه في قلعة الكرك، فنزل غزة وانضم إلى الخوارزمية. وكان يقود الجيش الآخر الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني وتمركز في مدينة نابلس.

أمّا جيوش التحالف الشامي - الفرنجي فكانت احتشدت في غزة استعداداً لغزو مصر. ولمّا تكامل وصول الخوارزمية وعساكر مصر حدث الاشتباك ودارت الدائرة على جيوش التحالف، ففر قادتها ومقدموها حتى دخلوا دمشق. ثم أحاط الخوارزمية بعسكر الفرنجة ووضعوا السيف فيهم حتى فنوهم قتلاً وأسراً، وسيق أسراهم إلى القاهرة وكانوا بالمئات، فأمر الصالح أيوب بأن تزين شوارع القاهرة احتفاء بالنصر. وقد عرفت هذه المعركة باسم هَرْبيا، على اسم إحدى القرى القريبة من مدينة غزة. وكانت حامية من الفرنجة أفلحت في تحصين مدينة عسقلان بعد أن تنازل عنها الصالح إسماعيل، فتوجه بعض كتائب جيش مصر لمحاصرتها.

بعد معركة هَرْبيا توجه جيش مصري ثالث إلى دمشق يقوده الأمير معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ودخل في إمرته عساكر الخوارزمية، وضرب حصاراً على المدينة امتد إلى جمادى الأولى ٦٤٣هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٥م، حين تم الاتفاق على خروج الملك الصالح إسماعيل والتنازل عنها للصالح أيوب.

أسفرت هذه الجولة من الصراع بشأن السلطة بين حكام الأسرة الأيوبية عن تغير إداري إقليمي تأثرت به فلسطين أكثر من غيرها من ولايات بلاد الشام، فكانت بتبعيتها الإدارية - السياسية تنتقل من يد إلى أُخرى حتى استقرت بعد معركة هَرْبيا في يد الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل. فصارت بإمرته مناطق غزة والساحل الجنوبي وبيت المقدس وبيت جبرين والخليل وبيت لحم ونابلس وبيسان والأغوار - وكانت قبل معركة هربيا مع الناصر داود - ما عدا مدينة القدس التي سلمت ثانية للفرنجة بعد تحررها الثاني. وتقلصت دولة الناصر داود لتقتصر على الكرك والبلقاء وعجلون.[٣٦]

## انحراف الخوارزمية عن الصالح أيوب

عندما دخلت قوات الصالح نجم الدين أيوب مدينة دمشق، منع الأمير معين الدين الحسن لبن شيخ الشيوخ عساكر الخوارزمية من دخولها. وأقطعهم بدلاً من ذلك بعض المناطق في محيط المدينة وبعض المناطق الساحلية المحررة في فلسطين. فشكلت هذه الخطوة خيبة أمل قاسية لهم، بعد أن كان أغدق عليهم الصالح أيوب عند استدعائهم إلى نجدته الوعود بإقطاعات كبيرة في أرض مصر، وبعد أن كانوا يطمحون إلى أن يتقاسم معهم البلاد التي يساعدون في تحريرها. لم تتأخر ردة فعل الخوارزمية الغاضبة على نكث الصالح أيوب وعده لهم، فعزموا على الخروج على طاعته وهاجموا بلدة داريا القريبة من دمشق ونهبوها، ثم راسلوا القائد ركن الدين بيبرس البندقداري، قائد الصالح أيوب، الذي تأخر بعد معركة هربيا لإطباق الحصار على عسقلان، وزينوا له التمرد على السلطان والانضمام إليهم، ووعدوه أن يزوجوه بامرأة منهم. ثم كاتبوا الناصر داود وزوجوه امرأة منهم واستمالوه إلى صفوفهم. فأسرع إلى الخروج من حصنه في الكرك واستعاد سيطرته على المناطق الفلسطينية التي كان فقدها في إبان الفتنة السابقة بين ملك دمشق وملك مصر، مثل نابلس والقدس والخليل وبيت جبرين والأغوار. ثم أسرع الصالح إسماعيل، الذي فقد عرشه في دمشق واكتفى بمدينة بعلبك، إلى الانضمام إلى التمرد. وكذا فعل أمير قلعة صرخد الصحراوية، إذ كان هؤلاء يخشون مخططات الصالح أيوب لتجريدهم من أملاكهم.

وهكذا، ما كادت الفتنة الأولى تنطفئ حتى استعرت نارها من جديد، وما كاد شمل تحالف الشاميين يتفرق حتى التأم من جديد، لكنه استعاض بالخوارزمية بدلاً من فرنجة فلسطين.

باشر الخوارزمية ومعهم قوات الصالح إسماعيل منازلة دمشق ونهب قرى ضاحيتها، وفرضوا عليها حصاراً محكماً قطعت من جرّائه خطوط التموين؛ فشح القمح حتى بلغت أسعاره مستويات خيالية، وتفاقم نقص المؤن حتى عدمت الأقوات، وألجأت المجاعة الناس إلى أكل القطط والكلاب، ولم يعافوا حتى أكل الجيف، ووصل الأمر ببعضهم إلى أكل لحوم البشر. وكثر الموت حتى عجز الناس عن دفن موتاهم، واستمر هذا الوضع المأساوي ثلاثة أشهر. وفي هذه الأثناء كان السلطان الصالح أيوب قد كثف اتصالاته بأمير حمص وأمير حلب حتى نجح أخيراً في إقناعهما بالوقوف إلى جانبه ضد الخوارزمية وحلفائهم. فلمّا تم له ذلك عزم على الخروج من مصر على رأس جيشه في الوقت الذي أخذ جيش حمص وجيش حلب يستعدان للتصدي للخوارزمية. وكان بذل جهداً لإقناع قائده ركن الدين بيبرس



البندقداري بمفارقة التحالف، ثم كتب إليه أن يترك موقعه في غزة ويلتحق بالمقر السلطاني في القاهرة، فلمّا وصل إلى هناك وضعه في السجن حيث اختفت آثاره ولم يُرَ بعدها.

عندما علم الخوارزمية باحتشاد جيشي حمص وحلب استعداداً للتوجه نحو دمشق، وبلغهم نبأ خروج السلطان من مصر، تركوا حصارهم للمدينة وتوجهوا نحو حمص حيث يحتشد عسكر حليفي الصالح أيوب ومن انضم إليهم من مقاتلي القبائل العربية والتركمانية. فدارت بينهم وبين الخوارزمية معركة قاسية عند بحيرة القصب في ظاهر حمص. أسفرت المعركة عن هزيمة منكرة حلت بالخوارزمية تفرق في إثرها شملهم ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وقتل عامة قادتهم، وعلى رأسهم زعيمهم حسام الدين بركة خان. أمّا من نجا من القتل من فلول الخوارزمية ففروا شرقاً حتى وصلوا إلى حرّان والتحقوا بالتتار. ومضت جماعة منهم إلى البلقاء وانضمت إلى عسكر الناصر داود، ووصلت فرقة منهم إلى نابلس فاستولت عليها. ولمّا وصلت أخبار الانتصار إلى القاهرة أرسل السلطان جيشاً يقوده الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ليستعيد ما فقده من المناطق في فلسطين، فأوقع بالناصر داود ومن معه من الخوارزمية في معركة السلط، وفر الناصر داود إلى الكرك محتمياً بها. فأخذ الأمير فخر الدين في استعادة النفوذ السلطاني على مناطق فلسطين والأردن المنطقة بعد الأُخرى، وفقد الناصر داود كل ما كان يسيطر عليه في فلسطين والأردن ولم يبق له سوى بلدة الكرك وقلعتها. ثم تقدم ابن شيخ الشيوخ نحو طبرية وأخذها من أيدي الصليبيين وهدم ما جددوه من القلاع والتحصينات. ولم ينته هذا العام إلاّ وقد أُخرج الفرنجة أيضاً من مدينة عسقلان بعد أن كانت سلمت لهم منذ سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م. وكان ذلك في أعقاب معركة القصب خلال النصف الثاني من سنة ١٢٤٦.[٣٧]

## نهاية حكم الأسرة الأيوبية في مصر

بعد انتصار الصالح أيوب على الخوارزمية، دانت بلاد الشام لحكمه ما عدا حلب والكرك. وكان استعاد في إثر ذلك الانتصار القلاع والمدن الفلسطينية التي تنازل عنها حاكم دمشق للفرنجة. وفي مطلع سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، استطاع أمير حلب أن يستولي على إمارة حمص بعد أن أجبر أميرها على التنازل عنها. فشق ذلك على الصالح أيوب الذي خرج من مصر يقود جيشاً لارتجاعها من الحلبيين. وبينما كان يحاصر حمص بلغه خبر توجه الصليبيين نحو مدينة دمياط، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع. وصودف أيضاً وصول سفراء

الخلافة من بغداد للوساطة بين الصالح أيوب وأمير حلب، فتقرر أن تبقى حمص في أيدي الحلبيين، وأسرع الصالح أيوب في العودة إلى مصر لمعالجة موضوع الغزو الصليبي. ولمّا نزل الصليبيون إلى البر، في أيار/مايو ١٢٤٩، اجتاحوا مدينة دمياط بعد أن أخلاها أهلها وغادرتها حاميتها، فأخذ الصالح أيوب يعمل على تحصين مدينة المنصورة استعداداً للهجوم الفرنجي المقبل. وفي خضم الاستعدادات المصرية للدفاع عن المنصورة مات السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، وكان في مرحلة متقدمة من مراحل مرض السل الذي كان يعاني جرّاءه منذ مدة، بعد أن استمرت ولايته السلطنة ما يقرب من عشرة أعوام. ومات السلطان من دون أن يوصي لأحد بولاية العهد، لأنه لم يكن يثق بأهلية ابنه الوحيد توران شاه لتولي منصب السلطنة، وكان يرميه بالهوج والخرق. كتمت شجرة الدر، جاريته التركية وسُرّيته وأم ولده خليل الذي درج صغيراً، أمر موته عن الناس حتى عن أقرب مقربيه وذلك حرصاً على تماسك الجبهة أمام خطر الفرنجة العسكري. ولم تفشُ خبر موته إلاّ إلى اثنين من كبار القادة هما الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الذي أدى دوراً بارزاً في الحرب ضد التحالف الشامي وبعد ذلك في إبان تمرد الخوارزمية، والطواشي محسن، وكان أكثر الناس قرباً من السلطان وموضع ثقته. ثم اتفق هذا الثلاثي على جمع أمراء الجيش وبلّغوهم رغبة السلطان في تجديد أيمان البيعة له ولولده توران شاه من بعده. وكان هذا القسم المجدد، بطبيعة الحال، مقدمة لإضفاء الشرعية على تعيين توران شاه في منصب السلطنة بدل أبيه. ثم تقرر استدعاء توران شاه في عجل، وكان نائباً عن أبيه في حصن كيفا، واختير لهذه المهمة كبير أمراء المماليك البحرية الأمير فارس الدين أقطاي. ثم شاع خبر موت السلطان بين الناس من دون أن يجرؤ أحد من الأمراء على أن يجري ذلك على لسانه. وظل الأمر كذلك حتى وصل ولي العهد توران شاه من المشرق في شباط/فبراير ١٢٥٠، فأُعلن موت السلطان رسمياً، وتمت تولية ابنه سلطاناً على مصر.

وعلى جبهة القتال تعثر زحف الفرنجة إلى المنصورة بسبب العراقيل والموانع التي وضعت أمام تقدمهم. وعندما استطاعوا أخيراً أن يجتازوا الموانع المائية تسبب اندفاعهم السريع في مهاجمة المدينة بهزيمتهم وارتباك صفوفهم. وأعرب الفرنجة، من أجل الخروج من مأزقهم العسكري، عن نيتهم قبول عرض سابق قدمه الصالح أيوب قبل موته يقضي بانسحابهم من مدينة دمياط في مقابل تسليمهم مدينة القدس ومناطق الساحل الفلسطيني. وكما كان متوقعاً فقد رفض اقتراحهم على الفور من جانب السلطنة الجديدة، فاضطروا إلى الانسحاب من محيط المنصورة بعد أن قطعت طرق إمدادهم، فتبعهم المسلمون وبذلوا السيف فيهم، فاختبأ الملك لويس التاسع في



إحدى القرى مع أفراد من مرافقيه وسلموا أنفسهم لأحد مماليك السلطان توران شاه، وأُلقي بهم في الأسر.

وقبل موت الصالح أيوب، وفي الفترة التي سقطت فيها دمياط في أيدي الفرنجة، حدث تطور مهم على أرض فلسطين كان له بعد سياسي وإقليمي في آن واحد. إذ كان الملك الناصر داود، ملك الكرك، الذي أصبح بعد هزيمة الخوارزمية هدفاً سهلاً أمام الصالح أيوب بعد أن اندثر حلفاؤه القدامى، يبحث عمن يستعين به بعد أن ضاقت عليه الأمور، فتوجه إلى حلب عسى أن يجد ضالته فيها. وقبل مغادرته الكرك أقام أصغر أبنائه الأمير عيسى ليكون نائباً عنه في أثناء غيابه. فأغضب تصرفه هذا ولديه الآخرين الأمجد حسن والظاهر شادي، فقبضا على أخيهما عيسى واستوليا على الكرك، وخرج أحدهما إلى مصر وقابل الصالح أيوب وعرض عليه تقديم الكرك في مقابل إقطاعات يُمنحها في مصر. فرحب الصالح أيوب بهذا العرض ولم يتردد في الاستجابة، وأرسل أحد أمرائه ليستلم الكرك والشوبك، وبهذا أصبحت سلطته على فلسطين وبلاد الشام شبه مطلقة.[٣٨]

## الأيام الأخيرة للأيوبيين في مصر

عندما كانت القوات الفرنجية الغازية لا تزال على أرض مصر تحتل مدينة دمياط، قام أمراء الملك الصالح أيوب وكبار مماليكه باغتيال السلطان، الملك المعظم توران شاه، بعد أن أمضى في الحكم أكثر من شهرين. وكان هؤلاء الأمراء قد لاقوا منه من الإساءة والتهميش وعدم الوفاء بالوعود والعزل عن الوظائف والتهديد بالحرمان، ما جعلهم يتفقون على التخلص منه. وساهمت شجرة الدر هي الأُخرى أي مساهمة في تحريضهم عليه بعد أن كان طالبها بتسليم أموال أبيه وتركته من الجوهر والنفائس. فلمّا جلس توران شاه إلى مائدة الطعام تقدم إليه مملوك أبيه بيبرس البندقداري، الذي تسمى بعد أن آلت السلطنة إليه بالظاهر بيبرس، وضربه بالسيف، ثم تتابع عليه الأمراء بسيوفهم حتى أزهقت روحه، وكان ذلك في آخر محرم ٦٤٨هـ/ أيار (مايو) ١٢٥٠م.

اتفق الأمراء بعد قتل السلطان على تعيين جارية (زوجة) السلطان الصالح أيوب شجرة الدر، المعروفة بكنيتها «أم خليل»، في منصب السلطنة، ولقبت على عادة السلاطين الذين قبلها بلقب سلطاني هو «الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر»، على أن يتولى الأمير عز الدين أيبك التركماني، أحد مماليك الصالح أيوب البحرية، أتابكية العسكر. ثم أقسم الأمراء يمين الولاء، وخُطب للملكة الجديدة على المنابر،

وضربت العملة باسمها وكان نقشها «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين» وذيل النقش بعبارة «والدة المنصور خليل».

بينما لاقى تنصيب شجرة الدر في السلطنة إجماع أمراء العساكر والأعيان في مصر، فإنه جوبه بالإنكار والصدود عند أهل الشام، وخصوصاً أمراء الأسرة الأيوبية وقادة العساكر وكبار الإداريين. فترك الأمير فخر الدين عثمان ابن العادل الثاني ابن الكامل القاهرة إلى دمشق، واستولى في طريقه على أموال الخزينة في غزة. ولمّا وصل إلى دمشق سلمه نائبها قلعة الصبيبة (قلعة بانياس) التي سبق أن تنازل عنها لعمه الملك الصالح أيوب. وفي فلسطين قام نائب قلعتي الكرك والشوبك، الطواشي بدر الدين الصوابي الصالحي، بالإفراج عن المغيث عمر ابن العادل الثاني، الذي كان نفاه توران شاه من القاهرة ووضع في الاعتقال في الشوبك، وبايعه ملكاً على الكرك والشوبك وأعمالهما وسلمه قلعتي البلدين.

أمّا في دمشق فإن نائب السلطنة الأمير أصيل الدين الإسعردي رفض ومعه الأمراء الأكراد القيمرية حلف يمين الولاء للملكة الجديدة. وبدلاً من ذلك كتب الأمراء القيمرية إلى ملك حلب، الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد ابن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين، يعلمونه بامتناعهم من مبايعة شجرة الدر ويحثونه على القدوم إلى دمشق لينصبوه ملكاً عليها. فأسرع الناصر يوسف ودخل دمشق واستولى عليها وعلى قلعتها من دون قتال. ثم ما لبث إلاّ قليلاً حتى دانت له عجلون وبعلبك. وبلغ الاستهجان ذروة جديدة حين صدر عن بلاط الخلافة في بغداد، أعلى المرجعيات السياسية والدينية معاً، كتاب وصل إلى الأمراء المتنفذين في مصر جاء فيه: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نُسَيّر إليكم رجلاً.»

أثارت التطورات التي حدثت في الشام قلقاً لدى أوساط الأمراء في مصر، وأخذوا في تصفية أو اعتقال الأمراء الذين يعارضون شجرة الدر، ولم ينج من ذلك الأعيان والوجهاء والفقهاء. وخوفاً من اتساع حركة المعارضة قام الأمراء الأتراك بخلع الملكة شجرة الدر عن السلطة وتعيين أتابك العسكر عز الدين أيبك الصالحي بدلاً منها، ولقبوه بالملك المُعِز، فكان أول سلطان من المماليك الأتراك، وأبطلت الخطبة والسكة باسم شجرة الدر بعد أن تزوجت بأيبك وتنازلت له عن المُلك بعد أن استمرت في السلطنة ثمانين يوماً.

وبدا تعيين المملوك الصالحي في منصب السلطنة، والذي برره البعض بأنه عمل تصحيحي لتلافي المآخذ والانتقادات التي أثارها تعيين جارية على رأس الدولة، أنه تخبّط محض سرعان ما اكتشف الأمراء أخطاره ونتائجه السلبية. فلم تمض على هذا التعيين إلاّ خمسة أيام حتى أُلغي القرار واجتمع رأيهم على أن يقف شخص من بني



أيوب، الأسرة الحاكمة، ليكون شريكاً للمعز أيبك، بل ليقف على رأس الهرم السلطوي - السلطنة - فيجمع الناس على طاعته، وبالأحرى ليسكت وجوده أي معارضة من أبناء الأسرة. فاختير طفل صغير عمره عشرة أعوام هو الأشرف موسى بن يوسف، أحد أحفاد الملك الكامل، على أن يكون عز الدين أيبك أتابكاً له. لم توقف هذه الخطوات الاستدراكية المتسارعة موجة المعارضة والاحتجاج التي عمت فلسطين وبلاد الشام على ما آل إليه حال السلطنة في مصر، وبالأحرى لم تنجح في لجم المعارضة المحتدمة في مصر ذاتها بين أوساط الأمراء المصريين. فخرج أحد مقدمي الجيش المصري، الأمير ركن الدين خاص ترك، قائد الحامية العسكرية في غزة، بعد أن وصلت إليها طلائع العساكر التي أرسلها ملك حلب ودمشق الناصر يوسف، وزحفت القوات المشتركة نحو القاهرة ونزلت إلى الصالحية، على مفترق الطرق المؤدية إليها. واتفقوا على المناداة بالملك المغيث، ملك الكرك الجديد، مرشحاً لمنصب السلطنة. فأرسلت القاهرة قوة عسكرية نحو المحتشدين في الصالحية فتفرق شملهم. واستمرت فرقة من هذه العساكر في زحفها نحو غزة بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي وطردت طلائع العساكر الشامية التي أرسلها الناصر يوسف من مدينة دمشق.[٣٩]

## محاولات الأيوبيين اليائسة
## لاستعادة عرش مصر

حشد الملك الناصر يوسف، ملك دمشق وحلب، أمراء الشام الأيوبيين، وخرج في أواسط رمضان ٦٤٨هـ/كانون الأول (ديسمبر) ١٢٥٠م قاصداً مصر في محاولة لوضع حد لاستيلاء المماليك البحرية على عرش الأيوبيين هناك. وفي الاشتباك الذي حدث بين الطرفين في شباط/فبراير ١٢٥١ هُزمت العساكر المصرية، وكان النصر قاب قوسين أو أدنى للناصر يوسف، لكن رباطة جأش المعز أيبك الصالحي حولت الهزيمة إلى نصر مبين، ووقع في أسره كل الأمراء الأيوبيين المرافقين للحملة، ولم ينج منهم إلاّ الناصر يوسف الذي نجح في العودة سالماً إلى دمشق. ومع قساوة هذه الهزيمة التي مني بها ملك دمشق فإنه أعاد الكرة في العام التالي، وأرسل قوة عسكرية رابطت داخل مصر، لكنها لم تحرز تقدماً يذكر، إذ كانت قوات المعز أغلقت دون حركتها وفاعليتها السبل، وظل الطرفان متوافقين أحدهما إزاء الآخر مدة تقارب العامين نجحت خلالها جهود المصالحة التي بذلها رسول الخلافة العباسية نجم الدين البادرائي، إذ استقر الصلح بين الناصر يوسف والمماليك البحرية المصريين على أن

يمتد نفوذهم حتى نهر الأردن، أي أن تكون لهم فلسطين الأيوبية، ويكون للناصر يوسف، ملك دمشق، ما وراء نهر الأردن، وتم ذلك في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م.

بعد أن هدأت الجبهة الدمشقية – المصرية في أعقاب الصلح، تفرغ الملك المعز أيبك للتخلص من خصومه الذين يعوقون تحقيق طموحه إلى السلطنة. وكان أقوى هؤلاء الخصوم الأمير فارس الدين أقطاي، الذي كان يمنع أيبك من الاستبداد بالسلطة وإبعاد الملك الأشرف موسى الأيوبي عن السلطنة. فدبر أيبك خطة اغتيل في إثرها أقطاي، ثم قام من فوره بإقصاء الملك الأشرف عن منصبه، وألغيت الخطبة باسمه في أرض مصر. وبذلك انقضت دولة الأيوبيين في مصر سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، لتحل محلها نواة دولة المماليك التي ستتسع حدودها لتشمل بالإضافة إلى مصر أرض بلاد الشام والجزيرة واليمن وشبه الجزيرة العربية.(٤٠)

## فرار المماليك البحرية إلى فلسطين

كان المماليك البحرية التفوا حول خُشْداشهم (زميلهم) الأمير فارس الدين أقطاي حتى قوي بهم وأصبح موضع مخافة عند الملك المعز أيبك، وكان ذلك واحداً من الدوافع التي أدت به إلى تدبير اغتيال أقطاي. ولمّا شاع خبر مقتله تجمع المماليك البحرية، وبلغ عددهم ٧٠٠ مملوك، ليقتحموا القلعة فوجدوا أبوابها موصدة. أمر أيبك بأن يلقى رأس زعيمهم من وراء الأسوار، فلمّا رأوا الجمجمة أسقط في أيديهم، وقرروا الخروج من القاهرة تحت جنح الظلام. فذهب فريق منهم إلى الكرك عند الملك المغيث، وذهب فريق ثان إلى دمشق حيث الملك الناصر يوسف. واستقرت جماعات أُخرى بالقدس وغزة ومنطقة البلقاء شرقي نهر الأردن من دون أن يرتبط عناصرها بأي من ملوك البلاد الشامية، وتحولوا إلى عصابات للتلصص وقطع الطريق. بل أُبعدت مجموعة رابعة شمالاً حتى اجتازت بلاد الشام والتحقت بدولة سلاجقة الروم.

أمّا عناصر المماليك البحرية الذين وصلوا إلى غزة، وكان أبرزهم ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سيدخل التاريخ بلقبه السلطاني الظاهر بيبرس، ومعه الأمير سيف الدين قلاوون الذي لقب بالألفي، فكتبوا إلى ملك الشام الناصر يوسف أنهم خرجوا من مصر ليضعوا أنفسهم في خدمته وبتصرفه. فخرج الناصر يوسف في استقبالهم على مشارف دمشق، وخلع عليهم الخلع، وأغدق عليهم الهدايا. ثم أخذوا يستحثون الناصر يوسف على غزو مصر لاستعادة عرشهم الذي استلبه المملوك الصالحي – زميلهم – المعز أيبك. لكن الناصر يوسف، الذي سبق أن تجرع كأس



الفشل في غزوه مصر من قبل، أخذ في المماطلة ولم يبد حماسة للأمر. وكان المعز أيبك يخشى غائلة المماليك البحرية، فكتب إلى ملك دمشق يخوفه من عاقبة شرهم. وكتعبير عن حسن النية تجاه الناصر تنازل المعز عن تلك المناطق الفلسطينية التي أصبحت تابعة لمصر بعد الوساطة التي قام بها البادرائي مبعوث الخلافة. فقام الناصر يوسف بتوزيع هذه البلاد إقطاعات على المماليك البحرية.

وعلى الرغم من بادرة حسن النية التي أبداها الملك المعز أيبك فإن الناصر يوسف نقض الاتفاق، وأرسل بعض القوات العسكرية وعلى رأسها الأمراء من المماليك البحرية فدخلت الأراضي المصرية. ومرة أُخرى تدخل البادرائي للوساطة بين الطرفين، ليتوصل في النهاية إلى اتفاق بينهما سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، تم بموجبه نقل المناطق الفلسطينية الساحلية والداخلية، والتي كان استولى عليها الصالح أيوب بعد انتصاره في هربيا، إلى السيادة الدمشقية. وكانت إعادة هذه المناطق إلى سيادة دمشق في مقابل تعهد الناصر يوسف بالتوقف عن إعطاء المماليك البحرية الفارين من مصر ملجأً. ونتيجة هذا الاتفاق تعهد الناصر يوسف بإخراج الأمراء البحرية من دمشق ومن الولايات التابعة له ليجدوا ملجأً في الكرك في كنف الملك المغيث ابن العادل الثاني ابن الكامل. لكن هذه العملية لم تتم بالبساطة والسهولة التي توقعها الناصر إذ امتنع المماليك البحرية المقيمون بغزة من الرحيل، وهاجموا جيشاً بعثه إلى نابلس لهذا الغرض. إلاّ إن الضغط العسكري الذي مارسه جيش دمشق عليهم اضطرهم إلى الانسحاب شرقاً حتى استقروا بمنطقة مؤاب في الناحية الجنوبية الشرقية للبحر الميت.

مع ذلك بقيت جماعات من المماليك البحرية على أرض فلسطين مستعصية على جيش دمشق، فقصدت مدينة القدس. وكانت القدس إقطاعاً منحه الناصر يوسف لأمير من المماليك البحرية هو سيف الدين كبك. طلب المماليك البحرية الذين وصلوا إلى القدس من كبك أن ينضم إليهم، لكنه امتنع فقبضوا عليه ودخلوا مدينة القدس، وأعلنوا مبايعتهم الملك المغيث صاحب الكرك سلطاناً عاماً، وخطبوا باسمه على منبر المسجد الأقصى. ومن القدس توجهوا نحو غزة وقبضوا على نائبها واستولوا على خزينتها. ثم أغروا الملك المغيث وأطمعوه في عرش مصر، عرش أبيه وجده. وكان ٣٠٠٠ من الفرسان الأكراد الشهرزورية ممن فروا أمام هولاكو قد وصلوا إلى الشام، فاستمالهم الملك المغيث وتقوى بهم، الأمر الذي شجعه على الاستجابة لعرض المماليك البحرية، فخرجوا بقوات مشتركة نحو مصر حتى وصلوا إلى الصالحية حيث تصدت لهم قوات مصرية وأجبرتهم على التقهقر. ففر بعضهم حتى دخل الكرك، وأقنع الملك المغيث بأن يبعث جيشه مجدداً إلى مصر لاستعادة العرش، وكان قائد الحملة الأمير ركن الدين بيبرس. وفي هذه المرة تصدى لهم جيش مصر بقيادة الأمير

قطز فهزمهم وشتتهم فعادوا أدراجهم إلى الكرك.

سمع ملك دمشق، الناصر يوسف، بهزيمة المماليك البحرية أمام قُطز، فطمح إلى القضاء عليهم، وأرسل جيشاً إلى غزة إلاّ إن محاولته خابت. وعلى عكس ما كان يطمح إليه فقد استطاعت قواتهم وقوات الملك المغيث من هزيمة جيشه ومطاردته حتى مشارف دمشق وذلك في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ولم يردهم عن دمشق إلاّ وصول الأنباء بسقوط بغداد على يد التتار.

وفي السنة التالية، خرج الناصر يوسف على رأس جيشه نحو الكرك ونزل إلى بركة زيزاء القريبة منها، وهو ينوي محاصرة المدينة بعد أن تعاظم خطر الملك المغيث عليه جرّاء تحالفه مع المماليك البحرية ومع الأكراد الشهرزورية. فأخذ الملك المغيث يتصل سراً بالناصر يوسف لعقد الصلح، لكن الأخير اشترط تسلم المماليك البحرية. وعلم ركن الدين بيبرس بهذه الاتصالات، فأراد أن يستبق الصلح الذي يجري التفاوض بشأنه، وأسرع في الخروج سراً من الكرك ومعه بعض مقربيه من المماليك، وأعلن ولاءه للناصر يوسف ووضع نفسه في خدمته، بينما قبض المغيث على المماليك البحرية الباقين وسلمهم للناصر يوسف الذي فك الحصار وعاد إلى دمشق.(٤١)

بهذه الحادثة يكون هذا الفصل الذي أدى أدواره المماليك البحرية على مسرح الأحداث في فلسطين ومصر قد انتهى بعد أن دام قرابة ستة أعوام، كشفت بشكل لا يدع مجالاً للشك عن مدى الضعف والتفكك اللذين اعتريا حكام الأسرة الأيوبية في فلسطين وبلاد الشام في وقت كانوا يسعون لاستعادة مصر التي فقدوها لجنودهم من المماليك الذين كانوا اشتروهم بأموالهم.

كما أثبت سير الأحداث من ناحية أُخرى مدى تأثر فلسطين المباشر بالصراعات الداخلية التي كانت تتفجر بين الحين والآخر بين أمراء الأسرة الأيوبية في الشام وفي مصر، مع كل ما كان يرافق هذه الصراعات من انعكاسات اجتماعية وسياسية واقتصادية تركت بصماتها على هذه البلاد فيما يستجد من الأحداث.

## النظام المملوكي يرسخ أقدامه

في ربيع الأول ٦٥٥هـ/آذار (مارس) ١٢٥٧م، قتلت الملكة شجرة الدر زوجها السلطان المعز أيبك بمساعدة بعض جواريها. وكان أيبك رمزاً للانقلاب السياسي الذي أحدثه العساكر المماليك وأطاح العرش الأيوبي في مصر. ثم تتالت الأحداث بعد ذلك لتثبت أن اغتصاب السلطة في مصر لم يكن حدثاً عابراً، أو نزوة شخصية



مصيرها الزوال برحيل صاحبها. فبعد مقتل المعز أيبك اجتمع الأمراء أصحاب النفوذ في دولته وقرروا تولية ابنه البكر نور الدين علي، الذي يبلغ عمره خمسة عشر عاماً، سدة الحكم. وبذلك يكون أمراء المماليك مارسوا تقاليد الحكم التي كانت متبعة لدى الأسرة الأيوبية، فأكسبوا تلك التقاليد صفة الاستمرارية، وكأن شيئاً لم يحدث. والأهم من ذلك كله أن أبناء الأسرة الأيوبية من حكام بلاد الشام الذين تصدوا لانتزاع عرشهم في مصر، أخذوا يسلمون تحت ضغط الأحداث، ولا سيما عشية غزو التتار لبلاد الشام، بوجود نظام المماليك المغتصب، ولو أنه ظل في نظرهم يفتقر إلى الشرعية. فرأينا أن الناصر يوسف، ملك حلب ودمشق، وأكبر ممثلي الأسرة الأيوبية، يرسل الفقيه المؤرخ كمال الدين ابن العديم إلى القاهرة يطلب النجدة والعون من الملك المنصور، وارث أيبك، ضد الغزو التتاري الذي بات على الأبواب. وعندما أطاح الأمير قطز المنصور ابن أيبك واستولى على السلطنة، تقدم ابن العديم بطلب العون إلى السلطان الجديد.

بعد أن استولى التتار على بغداد، وشرع هولاكو في أخذ البلاد الواحد تلو الآخر، جاء دور بلاد الشام، فاستولى على حلب ودخل حماة وحمص، وبدأت سلطة ملك الشام، الناصر يوسف، تضمحل، ففارقه أصحابه وتفرقوا عنه. وكان زعيم المماليك البحرية ركن الدين بيبرس من أبرز هؤلاء، ووصل بهم الأمر إلى حد محاولة اغتياله والفتك به.

ولمّا فشلت المحاولة فر هؤلاء إلى غزة، وهناك أعلنوا خلعهم الملك الناصر يوسف، وبايعوا أخاه الشقيق الظاهر غازي ابن العزيز ابن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين نظراً إلى شجاعته وشهامته. وأخذوا على الناصر يوسف تخاذله وسوء تدبيره في مواجهة الخطر المغولي، بينما انضم ركن الدين بيبرس ومعه بعض كبار المماليك البحرية إلى قطز بعد أن منحهم الأمان فدخلوا مصر.

وعندما استفحل خطر التتار لم تكن مصر بمنأى عن التأثر بالأحداث. فقام الأمير قطز، أقوى الرجال المحيطين بالسلطان المنصور ابن أيبك، بإطاحة السلطان الحدث صغير السن، لأنه اعتبر بقاءه في منصب السلطنة تكريساً للفرقة والتنافس بين الأمراء المحيطين به، ومن ثم تعطيلاً لسديد الرأي الذي تحتاج إليه المرحلة من أجل مواجهة الخطر الداهم. لذلك جمع قطز الفقهاء والأعيان وأنصاره من الأمراء وبلّغهم أنه لا بد من أن يقوم بالحكم رجل شهم قادر يطيعه الناس كي يتصدى لمهمة الجهاد. لاقت دعوته التفهم والقبول، فقام باعتقال الملك المنصور ووضعه تحت الحيطة في القصور السلطانية. ثم تمت البيعة لقطز وحلفت له أيمان الولاء والطاعة وكان ذلك في ذي القعدة ٦٥٧هـ/تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٥٩م.

وفي الوقت الذي كانت تتم هذه التطورات السياسية الداخلية في دمشق والقاهرة، كان الاجتياح العسكري المغولي لا يزال يندفع في بلاد الشام، حتى كادت مدينة دمشق تخلو من أهلها القادرين على النزوح والفرار جنوباً، فعمت الفوضى وأعمال النهب وقطع الطريق. وخرج الناصر يوسف وأعضاء حكومته من دمشق متجهين نحو فلسطين حتى وصلوا إلى غزة، ثم قطعوا حدود العريش فراراً إلى مصر. أمّا التتار فبعد أن دخلوا دمشق توغلوا في فلسطين إلى أن وصل بعض سراياهم إلى نابلس والخليل وبيت جبرين ومدينة السلط وضواحي الكرك، حتى إنهم وصلوا إلى مدينة غزة.

وإزاء حالة اليأس والإحباط التي أصابت المسلمين، كان أقصى ما يتمناه الأمراء في مصر هو حماية بلدهم لا غير.[٤٢]

## قطز وعين جالوت وكسرة التتار

بات السلطان قطز عاقداً العزم على التصدي للتتار وهو يعلم ضعف همة القادة والأجناد للجهاد وكرههم للحرب. وعلى الرغم من ذلك أمر بأن يُنادى في القاهرة وفي سائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله. وأصدر أوامره إلى كل حكام الولايات بضرورة استنفار الأجناد للالتحاق بوحداتهم العسكرية، وإنزال العقوبة بكل من يتخلف منهم عن الخروج. ثم خرج من القاهرة ونزل في معسكر الصالحية انتظاراً لتكامل وصول العساكر. ولمّا حانت ساعة الرحيل جمع قادته وأطلعهم على قراره بخوض الحرب والمواجهة مع التتار. فرفض القادة كلهم الرحيل، فقال لهم: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطّلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.» ثم تكلم بعض القادة وحلفوا له على المسير، فلم يكن أمام البقية من خيار غير الموافقة والاستجابة.

أرسل قطز الأمير ركن الدين بيبرس، كبير الأمراء البحرية، طليعة أمام الجيش لكشف أخبار التتار وتحركات قواتهم، وعندما اقترب من غزة فر من كان فيها من عساكر التتار، فدخلها قطز وجيشه من دون مقاومة. ومن غزة توجه قطز عبر الطريق الساحلية إلى عكا، والتقى قادة الفرنجة الذين أظهروا رغبتهم في محاربة التتار إلى جانبه، لكنه لم يوافق على هذا العرض، وطلب منهم أن يتعهدوا بألاّ يغدروا به ففعلوا.

كانت قيادة التتار قد أوكلها هولاكو بعد احتلاله دمشق إلى اثنين من نوابه هما



كتبغا نوين وبَيْدَرا. فلمّا علما بتحرك جيش مصر بقيادة السلطان قطز، أخذا في حشد عساكرهما من سائر نواحي الشام، وتجمعوا في فلسطين عند قرية عين جالوت الواقعة في مرج ابن عامر، ودارت بين الطرفين معركة قاسية أسفرت عن مقتل القائد التتري كتبغا وانكسار جيشه، ففر الجنود ولجأوا إلى التلال المجاورة. ثم ما لبثت هذه الفلول أن تجمعت معاً لتقوم بهجوم مضاد، فنشبت معركة أُخرى قرب مدينة بيسان، هزم التتار فيها هزيمة كاسحة، ففروا هائمين على وجوههم. ووُكل إلى الأمير ركن الدين بيبرس تتبع الفارين وظل يطاردهم حتى حلب. وساهم أهل البلاد في صيد هذه الفلول والقضاء عليها.

بعد نصر عين جالوت دخل السلطان قطز طبرية، ومن هناك بعث بخبر النصر إلى دمشق. فكان يوم الجمعة الواقع فيه ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م يوماً مشهوداً يضاف إلى مكانة فلسطين في تاريخ العرب والمسلمين. وتخليداً لهذا النصر أمر السلطان بيبرس بأن يقام مشهد للنصر في عين جالوت شكراً لله على هذه المنحة التي أنعم بها على المسلمين. خرج السلطان قطز من طبرية ووصل إلى دمشق في آخر رمضان، ودخل قلعتها وأرسل نوابه لاستلام مدن الشام وولاياتها. ثم قسم الإقطاعات على قادته، فكانت إدارة فلسطين من نصيب الأمير شمس الدين أقوش البرلي (ذي الأنف الكبير)، إذ جعله أميراً على غزة ومنطقة الساحل الفلسطيني ومعه عدد من الأمراء المرافقين. اتخذ البرلي مدينة نابلس مقراً لولايته، وكان يغير أحياناً هذا المقر فيجعله في قرية بيت جبرين. وعلى العموم وضع انتصار المسلمين في عين جالوت حداً للاحتلال المغولي الذي شمل بلاد الشام من نهر الفرات حتى العريش بعد أن جثم على صدر أهل البلاد سبعة أشهر.[٤٣]

## اغتيال قطز وقيام الظاهر بيبرس

ما إن أتم السلطان قطز، بطل عين جالوت، ترتيب الإدارة في بلاد الشام، وعيّن نوابه في مدنها الرئيسية، حتى سار في طريق العودة إلى القاهرة. ولم تخل مسيرة النصر العسكري الذي أحرزه من بعض الحزازات التي خلفتها التعيينات الإدارية التي أحدثها في بلاد الشام. حتى إن التبكير في العودة إلى مصر قبل أن يقوم بزيارة حلب، التي كان ينوي زيارتها، إنما نشأ عن النفور الذي حدث بينه وبين الأمير ركن الدين بيبرس بعد أن رفض تعيينه في ولاية حلب، وفضل عليه الملك السعيد ابن بدر الدين لؤلؤ، أمير الموصل، الذي دخل مصر في حملة الناصر يوسف سنة ١٢٥٠م، والتحق بسبب فشل الحملة بالأمير قطز وصار واحداً من رجاله. ولم يقتصر الأمر بين

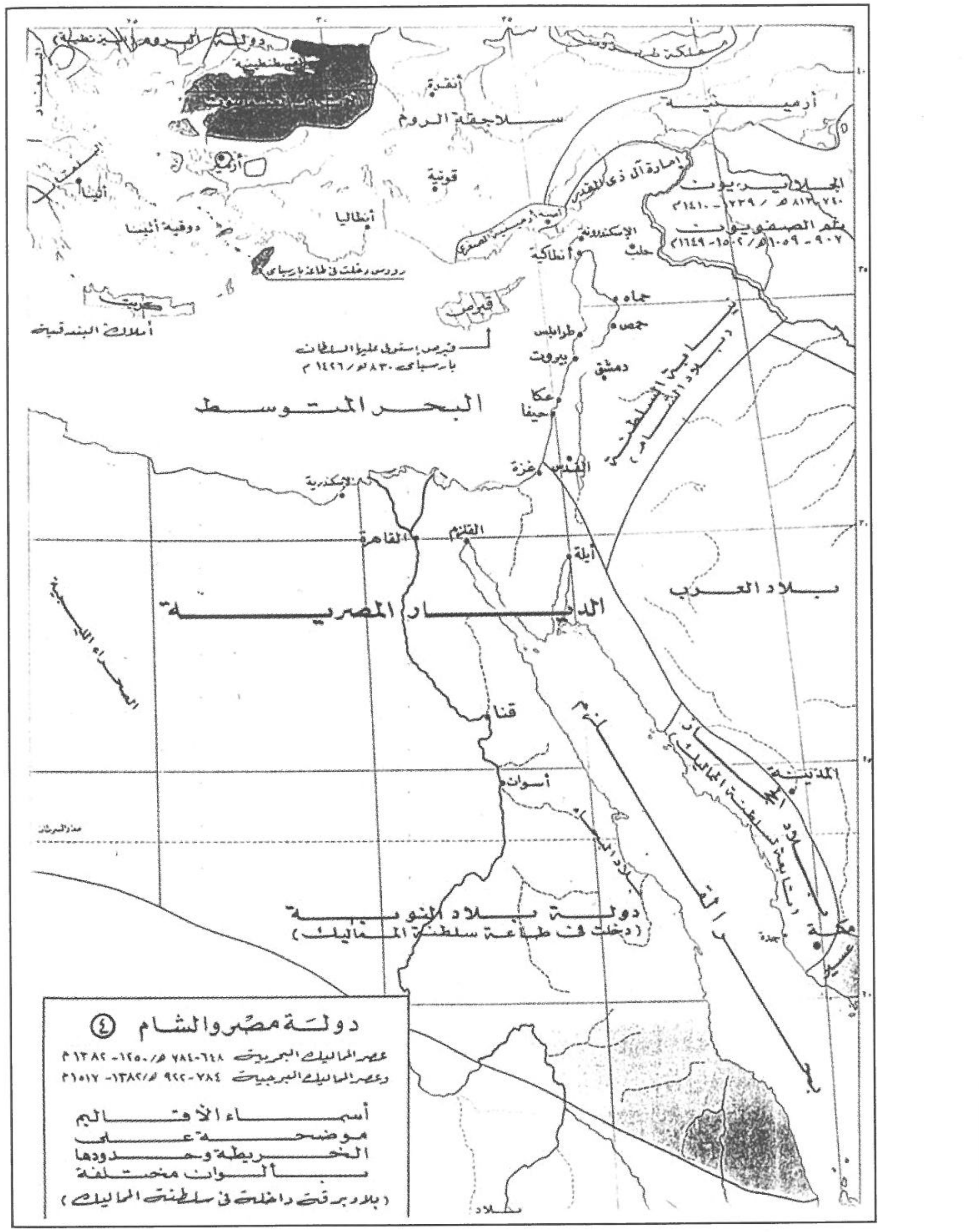




الرجلين، بيبرس وقطز، على مجرد النفور فقط، بل تطور أيضاً إلى درجة العداء وإضمار السوء، فكان يخشى أحدهما الآخر ويكيد له.

ولمّا بلغ بيبرس ما يدبره له السلطان قطز، أسرع إلى إطلاع بعض الأمراء المقربين منه من رؤوس الأمراء البحرية، الذين كانوا مع الخارجين إلى الشام بعد مقتل الأمير أقطاي زعيم المماليك البحرية، واتفق معهم على اغتيال السلطان قطز. وعندما وصل قطز إلى الصالحية، قبل وصوله إلى القاهرة، انحرف عن الدرب ودخل البرية للصيد، وكان معه هؤلاء الأمراء. فلما فرغ من صيده وركب عائداً إلى عسكره طلب منه ركن الدين بيبرس أن يهبه امرأة من سبايا التتار، فأنعم عليه بها، فأهوى بيبرس على يد السلطان يريد تقبيلها تعبيراً عن شكره، وكانت هذه الحركة إشارة متفقاً عليها بين الأمراء المتآمرين، إذ قبض بيبرس على كف السلطان قطز، بينما بادر الآخرون بضربه بسيوفهم حتى فارق الحياة. وعند عودة الأمراء إلى المعسكر أعلنوا سلطنة الأمير ركن الدين بيبرس وبايعه كل أمراء الجيش، فدخل القاهرة، التي كانت زينت احتفاء بدخول السلطان قطز بمناسبة انتصاره في عين جالوت، ومشى إلى القلعة مقر السلاطين، ولقب بالملك الظاهر.[٤٤]

## الظاهر بيبرس وسياسة التحرير والجهاد

اعتلى الظاهر بيبرس عرش السلطنة، وأصبح سلطاناً بلا منازع في دولة المماليك التي هيمنت الآن على كل بلاد الشام، من العريش جنوباً حتى مجرى نهر الفرات شرقاً. وبالإضافة إلى خصومه المحليين من الأمراء الطامحين إلى السلطة والجاه، كان أمامه تحديان كبيران على صعيد السياسة الخارجية: الأول، تمثل في الخطر المغولي الآتي من الشرق، وهو الخطر المهدد والأكثر إلحاحية، بينما تمثل التحدي الثاني في الفرنجة القابعين على أرض بلاد الشام والذي ورثه نظام المماليك عن أسيادهم حكام الأسرة الأيوبية. وكان هذا التحدي على أهميته، بسبب بعده الجغرافي الداخلي، أقل إلحاحية إذا ما قورن بخطر المغول، لأن الدولة الصليبية كانت تعاني جرّاء صراعات داخلية بين العناصر ذات النفوذ داخل المجتمع الصليبي، إضافة إلى الصراعات والمنافسات بين الجوالي الإثنية الأوروبية من جهة، وبين الجوالي التجارية المتنافسة من جهة أُخرى، والتي تطورت خلال الأعوام العشرة الماضية إلى حروب مسلحة بين الأطراف.

وقد انعكس هذا الوضع على الموقف المحايد الذي وقفه الصليبيون في الصراع المصيري الذي خاضه المسلمون ضد المغول، والذي حسم مرحلياً في معركة عين

جالوت.[٤٥]

كانت أولى المشكلات التي واجهت الظاهر بيبرس داخلية. فعندما وصل مندوبه إلى دمشق لأخذ بيعة نائبها سنجر الحلبي، الملقب بالملك المجاهد، والذي كان السلطان قطز عيّنه في هذا المنصب، رفض الحلبي إعطاء البيعة، وأخذ يبايع الناس لنفسه بعد أن أعلن نفسه سلطاناً مستقلاً. لكن حركته الانفصالية ظلت محدودة ومقصورة على دمشق، لأن نواب المدن السورية الأُخرى، مثل حمص وحماة وحلب، لم يؤيدوه. وسرعان ما انتهى هذ التمرد بمجرد وصول قوة عسكرية بعثها الظاهر بيبرس أطاحت المتمرد الحلبي ومن معه بسهولة. أمّا التتار، العدو الذي كان يخشى جانبه، فقاموا بحشد قواتهم وتقدموا نحو البيرة في ناحية الجزيرة. فأرسل نائب حلب قوة عسكرية نحوهم هُزمت بسهولة لصغر حجمها، وكان ذلك ما دعا أمراء العساكر في حلب إلى عزله، لأنهم حملوه المسؤولية عن هذه الهزيمة. ثم اندفعت جيوش التتار نحو حلب واستولت عليها أواخر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، ثم استولت بعد ذلك على مدينة حماة بعد أن أخلاها نائبها، وانسحب أفراد حاميتها ليلتحقوا بحامية حمص وعساكر حلب الذين تجمعوا للدفاع عن حمص. فالتقى التتار والمسلمون على مشارف حمص، وأنزل المسلمون بالمهاجمين هزيمة ساحقة، فتراجعت فلولهم منسحبة حتى خرجت من بلاد الشام.[٤٦] فسر بعض الباحثين حركة التتار هذه بأنها كانت من قبيل الانتقام لهزيمة عين جالوت، أو كأنها تكفير من القائد التتاري الأعلى هولاكو عن غيابه عن المعركة، لأنه كان ترك الشام لبعض نوابه وعاد إلى الشرق بعد دخوله دمشق، فأراد أن يعيد إلى التتار هيبتهم الجريحة، فجاءت النتيجة لتعمق هذا الجرح. وعلى الرغم من هذين الانتصارين المتتالين ضد المغول في عين جالوت وفي حمص، وبفارق زمني لا يتجاوز المئة يوم، فإن الظاهر بيبرس كان من اليقظة وبعد النظر وحسن التدبير بحيث لم يتكئ على هذا الإنجاز، وأراد أن يتلافى أي تهديد مستقبلي قد يشكله التتار على دولته، ولذلك نراه سخّر المعطيات المتاحة من أجل شغل التتار عنه وعن مهاجمة حدود دولته. فاتجه نحو مغول القفجاق، في مناطق جورجيا والقفقاس، الذين عرفوا باسم القبائل الذهبية (الأورطة الذهبية)، والذين اعتنق زعيمهم الملك بركة خان الدين الإسلامي، وكتب إليهم يغريهم ويشجعهم على محاربة مغول الجناح الأوسط، أو مغول إيران، الذين كان زعماؤهم، بمن فيهم هولاكو نفسه، قد اعتنقوا المسيحية النسطورية التي كانت سائدة من قبل في أرجاء المشرق وجنوب غرب آسيا. ونتيجة المراسلات التي جرت بين الزعيمين، بيبرس وبركة خان، في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٦١م، تم عقد التحالف ضد مغول إيران.[٤٧]



## بيبرس ومقدمات حرب تحرير فلسطين

من الواضح أن تأمين جبهة المغول استحوذ على اهتمام الظاهر بيبرس منذ تسلمه السلطنة، وحظيت هذه الجبهة عنده بالأولوية مقارنة بجبهة الفرنجة في الشام. ولعل من المفيد أن نشير في هذا الصدد إلى تبني الظاهر بيبرس فكرة إحياء الخلافة العباسية التي قضى عليها هولاكو عندما سقطت بغداد في يده، لأن هذه المسألة بالذات لم تكن خطوة توخى منها بيبرس البحث عن الشرعية السياسية أو الدينية، كما ظن بعض الباحثين المعاصرين، ذلك بأن تلك الشرعية إنما كانت تحصيل حاصل، إذ منحت لمؤسس النظام المملوكي الملك المعّز أيبك من قبل. والأرجح أن بيبرس أراد أن يحيي الخلافة العباسية ويبعث فيها الحياة لتكون شوكة تقض مضاجع التتار الذين استولوا على العراق. ولو أرادها بيبرس مجرد لبوس الشرعية، التي لا يحتاج إليها أصلاً، لأبقى الخليفة المزعوم أحمد ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر مقيماً بالقاهرة، ولمَ زوده بالرجال والمال وأرسله ليستعيد عرشه السليب في بغداد. فكانت هذه العملية خطوة أُخرى تعزز ترتيباته السابقة لتحييد التهديد المغولي.

وإذا كان تأمين جبهة المغول والتخلص من التهديد الذي يشكلونه من القضايا الساخنة التي لا تحتمل الإرجاء، فقد كانت قضية الملك الأيوبي المغيث ابن العادل الثاني، الذي أصبح ملكاً على الكرك أيام الفتنة التي أعقبت موت الصالح أيوب، مثار قلق الظاهر بيبرس، ولو أنها لم تكن بحجم الخطر المغولي. فقد كان هذا الأمير الأيوبي (حفيد الملك الكامل) أحد اثنين رُشحا لمنصب السلطنة من جانب الأمراء المعارضين لاستيلاء القادة المماليك على السلطنة في مصر. فبعد أن فشلت محاولة ملك الشام الناصر يوسف، الذي كان يطرح نفسه بديلاً شرعياً من السلطان المقتول توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، لاستعادة عرش مصر، طرح بعض قادة العساكر المصريين والشاميين اسم الملك المغيث كأحد الخيارات المناسبة لمنصب السلطنة. وبعد أن قتل الناصر يوسف، آخر ملوك الشام الأيوبيين، في أسر هولاكو، لم يبق من أبناء الأسرة الأيوبية من هو أكثر حظاً من الملك المغيث لوراثة منصب السلطنة الأيوبية الذي اغتصبه المماليك، وخصوصاً أنه الأمير الأيوبي الوحيد الذي ظل يتربع على عرش مملكة مستقلة في بلاد الشام، هي مملكة الكرك. كان الظاهر بيبرس يدرك المخاطر التي يمثلها الملك المغيث على دولة المماليك الفتية التي لم يمض على نشوئها عقد كامل من الزمان. وهو الأمير الذي مارس اللعب على المسرح السياسي، إن لم يكن أحد اللاعبين المركزيين عليه. ومن هذا المنطلق، قرر التخلص من الملك المغيث، ووضع حد لأي كيان سياسي أيوبي على أرض الشام. وجرياً على عادة

بعض المؤرخين المسلمين، فإنه قلما نجد تفسيراً منطقياً لكثير من الإجراءات السياسية التي يقوم بها الحكام، وبدلاً من ذلك يبحث هؤلاء المؤرخون عن دوافع وأسباب حقيقية أو وهمية ذات طابع شخصي لتفسير تلك الأحداث. وفي هذا السياق، نجد المؤرخ الكبير عماد الدين إسماعيل، أبا الفداء، يعزو القبض على الملك المغيث ثم سجنه في القلعة في القاهرة ومقتله إلى أمور شخصية بحتة فيقول: «وسببه أنه كان في قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم، لأمور كانت بينهما، قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور وبقيت امرأته في الكرك، والله أعلم بحقيقة ذلك.» وأياً تكن الدوافع التي وقفت وراء تصفية مملكة الكرك الأيوبية، فإن ذلك تم بحيلة بارعة وذكية لم يفطن لها الملك المغيث الذي عرف عنه شدة حذره ودهاء مستشاريه.[٤٨]

كان الظاهر بيبرس حتى هذا التاريخ، جمادى الثانية ٦٦١هـ/ أيار (مايو) ١٢٦٣م، حريصاً على علاقات طيبة بفرنجة فلسطين، ولم يقم بأي عمل من شأنه أن يعكر صفو العلاقة القائمة بين الطرفين. ففي الزيارة الأولى لدمشق، والتي قام بها أواخر سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م وهي سنته الأولى في منصب السلطنة، خرج زعماء الفرنجة في فلسطين للقائه في المنازل التي نزلها في طريقه وهم يحملون معهم الهدايا والإكراميات التي تليق بمقامه السامي. فذُكر أن كونت يافا أرسل يطلب السماح له بلقاء السلطان، ليقدم له آيات الاحترام. فبعث بيبرس أتابكه ليرافق الزعيم المرموق ويدخله معسكر العوجا (قرب رأس العين إلى الشمال الشرقي من يافا) حيث التقاه السلطان. وقام بيبرس بإكرامه، وكتب له مرسوماً يقره فيه على بلاده. ثم تتالى بعد ذلك قدوم البارونات الإفرنج ممثلين عن مناطقهم في فلسطين لتهنئته بسلامة الوصول وتقديم ما حملوه من الهدايا. وعندما وصل إلى دمشق جاءه رسول من عكا، عاصمة دولة الفرنجة، يطلب أن يمنح السلطان وفود المنظمات الفرنجية الباقية الإذن في القدوم إليه. لبى الظاهر بيبرس هذا المطلب، وألقى على ممثله في قلعة بانياس مهمة اصطحاب وفود الفرنجة القادمين لمقابلته، فجاءه أكابر زعماء الفرنجة يلتمسون تجديد اتفاقية الصلح التي كانت عقدت بينهم وبين ملك دمشق الناصر يوسف والتي قارب أجلها على الانتهاء. فتم تجديد تلك الاتفاقية من دون كبير عناء، ولم يُدرج في بنودها السابقة سوى بند خاص بتبادل الأسرى الذين استجد وقوعهم في الأسر خلال سنوات الهدنة، وتم توقيع الاتفاقية الجديدة من جانب الطرفين. وبالإضافة إلى الهدنة مع فرنجة عكا جددت اتفاقية الهدنة مع كونت يافا ومع كونت بيروت، وأخذ الطرفان يجمعان من عندهما من الأسرى لتنفيذ عملية التبادل؛ وعلى هذا الأساس تحولت



مدينة نابلس إلى محطة لتجميع الأسرى من الصليبيين، إلاّ إن مماطلة الجانب الفرنجي عطلت عملية التبادل، فنقل الأسرى من نابلس إلى دمشق.[٤٩]

## العلاقة بالفرنجة تميل إلى التصعيد

ظلت العلاقة بفرنجة فلسطين مستقرة على حالها من الرتابة، كما حددتها اتفاقية الهدنة التي عقدت في دمشق في إبان زيارة الظاهر بيبرس الأولى لبلاد الشام سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أخذت تميل إلى التصعيد نحو التوتر على خلفية التنكر للاتفاقات، وخرق بنود الهدنة بشكل سافر ومقصود. واستمر هذا الوضع نحو عامين من دون أن يبدي الظاهر بيبرس أي ردة فعل على هذه الخروق. فلمّا كانت زيارة السلطان الثانية لفلسطين، والتي كرست، كما بيّنا، لمسألة الكرك والقبض على ملكها الأيوبي الملك المغيث، برزت العلاقة بالفرنجة على السطح ودخلت مرحلة من المعالجة الجدية. وقد أشار المقريزي إلى هذا التحول الذي حدث في موقف السلطان بيبرس من المسألة الفرنجية حين قال: «ولمّا خلا بال السلطان من هَمّ الملك المغيث توجه بكليته إلى الفرنج.» كان الظاهر بيبرس قد أقام معسكره في الطور، جنوبي شرقي مدينة الناصرة. وقد حضرت عنده وفود تمثل إمارات الفرنجة، كيافا وأرسوف وأنطاكية وطرابلس، وباقي التنظيمات كالإسبتارية والداوية وصليبيي التيوتون الألمان. وكان ممثلو السلطان ونوابه في فلسطين وبلاد الشام يزودون المقر السلطاني في القلعة في القاهرة بالتقارير التي ترصد مخالفات الفرنجة وخروقاتهم في مختلف مناطق الشام، كما تفصل اعتراضاتهم وطلباتهم. فلمّا جلس السلطان لاستقبال الوفود الفرنجية التي قدمت إليه، أخذ يسرد على مسامع أفرادها تفصيلات الخروقات التي ارتكبوها خرقاً بعد الآخر، وتناول ادعاءاتهم وطلباتهم بالتفنيد، مبيّناً تحملهم المسؤولية عن كل تلك المخالفات. ثم أكد لهم بلهجة لا تخلو من التهديد أنه غير عازم على تجديد اتفاقيات الهدنة من جهة، وأن ما في أيديهم من أرض فلسطين إنما حصلوا عليه بالغش وقلة الوفاء، وذكر بالتحديد أن ملك دمشق الصالح إسماعيل تنازل لهم عن صفد والشقيف وعن مناطق أُخرى في فلسطين في مقابل دعم عسكري وعدوا به ولم يحترموا وعدهم. ثم لخص كلامه بإنذار صريح بضرورة إعادة كل ما أخذوه من البلاد بوسائل الخداع، وأن عليهم إطلاق أسرى المسلمين من دون إرجاء.

أيقن الفرنجة وممثلوهم في هذا اللقاء نبرة الجد في كلام الظاهر بيبرس، وأن لا مجال بعد اليوم للمماطلة والمناورة. لكن استعدادهم لاسترضاء السلطان لم يساعد

في تجديد الهدنة، ولم يساهم في تليين موقفه. ويبدو أن قرار المجابهة معهم كان اختمر في ذهنه قبل هذا اللقاء، وأنه كان قراراً استراتيجياً لا رجعة عنه. فأمر بإخراج وفود الفرنجة من معسكره على الفور ولم يسمح لها بالمبيت عنده تلك الليلة. وكمؤشر جلي إلى موقفه الجديد، أرسل من دون إبطاء الأمير علاء الدين طيبرس إلى الناصرة القريبة ومعه مفرزة من الفرسان، وأمره بهدم كنيسة الناصرة (كنيسة البشارة) على ما تحمله من الرمزية الدينية المتميزة في العقيدة المسيحية، فدكها طيبرس دكاً. وفي الوقت نفسه، أرسل قائداً آخر من قادته هو الأمير بدر الدين الأيدمري نحو عكا في خطوة أشبه ما تكون بعرض العضلات، وربما كان بهذه الأعمال يحاول استفزاز الفرنجة وجرهم إلى الدخول في مواجهة عسكرية لم يكونوا حسبوا حسابها أو استعدوا لها.

وفي خطوات تحضيرية لمرحلة المواجهة المقبلة مع الفرنجة في فلسطين، قام الظاهر بيبرس بتعيين قادته في فلسطين ومنطقة الساحل، وكذلك بفرض ضريبة على الفلاحين في القرى الساحلية سماها ضريبة «الجنايات»، تعويضاً عما كان الفلاحون ينهبونه من غلال البلاد، وعن ديّات المجهولين والغرباء ممن قتلوا ولم يكن لهم أهل أو ورثة يطالبون بدياتهم. ويبدو أن فرض هذه الضريبة كانت إحدى وسائل الردع للعابثين والمفسدين، إذ انكسرت بعد ذلك شوكة أهل العبث والفساد والإخلال بأمن الناس الأبرياء، كما انقطعت ظاهرة التجسس على المسلمين لمصلحة الفرنجة. ثم قام الظاهر بيبرس بخطوة عسكرية استعراضية تستهدف مدينة عكا، وخرج بنفسه على رأس قسم من جيشه، وكان الغرض من هذه الحملة إثبات قدرته على تحدي الهيبة التي كانت تمثلها عكا في نفوسهم، ووهمهم أن أحداً لا يجرؤ على مس هذه الهيبة. ولم تكن هذه العملية تخلو في الوقت نفسه من استكشاف بنية المدينة الدفاعية والوقوف على طريقة تحصينها. ولمّا عاد السلطان إلى معسكره في الطور (جبل الطور) وزع إقطاعات على ستة وخمسين أميراً من قادة عسكره. وكان ذلك يعني في المقام الأول تعزيز البنية التحتية للتنظيم العسكري اللازم لمرحلة التحرير التي وضع أسسها في معسكر الطور، بالإضافة إلى ضمان الحضور العسكري ذي الجهوزية الدائمة ليكون على أهبة الاستعداد لدخول المعركة في اللحظة المناسبة.(٥٠)

كان قرار الظاهر بيبرس بعدم تجديد الهدنة مع الفرنجة من الناحية الفعلية يعني أن تكون المناطق الفلسطينية التي يسيطرون عليها عرضة لهجمات المسلمين، على اعتبار أنها ساحة حرب مفتوحة، مع ما يترتب على ذلك من عدم الشعور بالأمن لدى الغزاة المحتلين، ومن ثم التشويش على مجريات الحياة اليومية في مدنهم وقراهم ومزارعهم وتجارتهم وتحركاتهم. وقد وصل هذا التشويش إلى درجة أنهم لم يجرؤوا



على فلاحة أرضهم أو جمع محاصيلهم من دون الحصول على ضمان يؤمن لهم الحماية والأمن. ولم يكن هذا الإمكان وارد الحدوث من الناحية النظرية فحسب، بل كان يحدث فعلاً بين الحين والآخر. ففي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م، عندما حان موسم البذار للمواسم الشتوية، تقدم الفرنجة في فلسطين بطلب إلى السلطان يستأذنونه في أن يسمح لهم بفلاحة أراضيهم، وبزراعتها ببعض المحاصيل المحددة، فاستجاب السلطان لهذا الطلب وتقرر أن تعلن هدنة لأيام معدودة حتى ينتهي فلاحو الفرنجة من زراعة موسمهم.(٥١) ويجب ألاّ يغيب عن البال أن عملاً من هذا النوع لم يأت لمجرد الأريحية وحسن النية، فتساهل هنا لمصلحة الفرنجة سيكون له مقابل يسهل فيه الفرنجة مصالح للمسلمين، كمرور القوافل والتجار، أو كعبور سفن في البحر تنتقل من موانئهم لترسو في موانئ المسلمين. وقد رأينا أن مرور البضائع والتجار كان دائماً واحداً من بنود اتفاقيات الهدنة التي تعقد بين الطرفين.(٥٢)

## الظاهر بيبرس
## يبدأ مسيرة التحرير في فلسطين

### قيسارية وعثليث

في مستهل رمضان ٦٦٢هـ/تموز (يوليو) ١٢٦٤م، أصدر الظاهر بيبرس أوامره إلى الأمير ناصر الدين القيمري، نائبه على ولاية الساحل الفلسطيني، بشن غارة على قيسارية وعثليث الساحلتين في منتصف المسافة بين حيفا ويافا. فوصل القيمري إلى باب عثليث وقتل من الفرنج وأسر، ثم توجه نحو قيسارية وعمل الأمر نفسه. لم تكن هذه الغارة حرباً من أجل التحرير، وإنما كانت بمثابة نشاط استطلاعي بقصد استكشاف مواقع العدو والتوغل في المناطق المحتلة التي يسيطر عليها لمعرفة أحواله وجهوزيته للقتال، بل لعلها كانت نوعاً من أعمال التدريب القتالي للقوات المحلية الإسلامية تمهيداً لعمليات التحرير.

بعد مضي أقل من عام على هذه الغارة خرج الظاهر بيبرس على رأس قوة عسكرية قوامها ٤٠٠٠ فارس متوجهاً نحو الجزيرة الفراتية في إثر تهديد مغولي جديد لمدينة البيرة. ولمّا كان يعسكر في يُبنى ليس بعيداً عن مدينة غزة تسلّم رسالة تبشره بتراجع التتار عن البيرة. لم يوقف السلطان سيره شمالاً بعد وصول هذه الأنباء السارة، وإنما تابع سيره فوصل إلى معسكر العوجا الآنف الذكر، وأمر سلاح الهندسة

بتجهيز المجانيق وآلات الحصار من المواد الخام التي حملها الجيش معه، وأصدر أوامره إلى قادة القلاع القريبة بإرسال ما لديهم من مجانيق وكوادر الصناع والحجارين المتخصصين بنقب الأسوار. وزحف شمالاً حتى خيم في معسكر عيون الأساور الواقع على الطرف الغربي لوادي عارة، والذي لا يبعد إلاّ بضعة أميال شرقي قيسارية. ثم انطلق بهجوم مُباغت على مدينة قيسارية ليلة ٩ جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ ٢٧ شباط (فبراير) ١٢٦٤م، فاقتحم جنوده الأسوار وفتحوا أبواب المدينة، ففر سكانها واحتموا بالخضراء قلعتها الحصينة، التي استُخدمت آلات الحصار المعدة لمهاجمتها بإشراف السلطان الذي وقف في كنيسة تواجه القلعة. وبعد أسبوع من الحصار اقتُحمت القلعة ودخلها المسلمون. ثم شرع السلطان في تدمير قيسارية حتى فرغ من ذلك. ثم انطلق جيشه في شعبتين توجهتا شمالاً، فنزل هو إلى عثليث، وأرسل شعبة ثانية إلى حيفا بقيادة الأمير سنقر السلحدار ومعه الأميران عز الدين الحموي وسنقر الألفي. فلمّا اقتربوا منها فر الفرنجة بالقوارب نحو عكا وتركوا قلعتها، فدخلها الجيش وقتل وأسر من بقي فيها ودمر حصون المدينة والقلعة وعاد إلى معسكره. وفي عثليث قام جيش الملك الظاهر بقطع الأشجار من حولها، وشعث قسماً من أسوارها، قبل أن يعود إلى قيسارية لاستكمال عملية تدميرها.

وفي مستهل جمادى الثانية نزل السلطان وجيشه إلى مدينة أرسوف الساحلية، وتم جمع كميات هائلة من الحطب (كان متوفراً في المنطقة، فغابة أرسوف المشهورة في الجوار) وتكويمها حتى صارت كالجبال الشاهقة حول المدينة، وجُعلت كالستائر بين الأسوار والمسلمين لتخفي ما يفعله الجيش المحاصِر خلفها. ثم أمر بحفر خندق يوصل بين المحاصرين والخندق المحيط بالسور، وبتغطية الخندقين بالحطب. ثم بدأ بحفر نفقين من هذين السربين، أحدهما يفضي إلى الشاطئ والآخر يفضي إلى السور، فكان الأول لمقاومة ومناوشة سفن الأسطول التي تقترب من المحاصرين، والثاني لإحداث النقوب والفتحات في جوانب السور. ووزع مهمات الحفر والنقب على أمراء جيشه، كل وكتيبته يُلقى عليه جانب من العمل. وكان الظاهر بيبرس خلال ذلك يشارك في العمل كواحد من جنوده ليصبح قدوة للجميع. وبعد أن فرغ من إتمام الخنادق والنقوب، بدأ زحف المقاتلين إلى الأسوار، فلم يشعر الفرنجة إلاّ وهم يتسلقونها وألقيت النيران على الأبواب فأحرقت. ثم أعلن منح الأمان لجنود الصليبيين الذين يلقون بسلاحهم ويتوقفون عن القتال، فأذعن الفرنج وتوقفوا عن القتال، ودلوا حبلاً تسلقه الأمير سنقر الرومي، الذي صعد أعلى السور ووضع راية السلطان عليه، وأخذ ينظم الأسرى في صفوف بعد أن يضع القيد في أيديهم. بعد ذلك أبيحت القلعة للجنود فانتهبوا محتوياتها، وأفرج عن عدد من أسرى المسلمين الذين كانوا



محبوسين داخلها. وعلى غرار ما جرى في قيسارية، أمر بهدم مدينة أرسوف، سورها وأبراجها وقلعتها، وأمر بأن يشارك أسرى الفرنج في عملية الهدم.

بعد أن أتم الظاهر بيبرس تطهير هذا الجزء من الساحل الفلسطيني من الاحتلال الفرنجي، قام بتوزيع القرى والمزارع إقطاعاً على قادته الذين شاركوا في عملية التحرير. كانت هذه القرى جزءاً من ناحيتي قيسارية وأرسوف وبلغت ٣٦ قرية، أورد المقريزي قائمة بأسمائها وأسماء الذين منحوا إياها من القادة. فبلغ عدد الأمراء الذين منحوا تلك الإقطاعات ٦٠ أميراً. وكانت هذه المنطقة تمتد من قرية جلجولية جنوباً حتى أم الفحم شمالاً.[٥٣]

## فتح صفد

في السنة التالية، في شعبان ٦٦٤هـ/ أيار (مايو) ١٢٦٦م، خرج الظاهر بيبرس من مصر يقود جيشاً إلى بلاد الشام. ولمّا وصل إلى غزة جعل الجيش فرقاً، وحدد لكل فرقة وجهتها، بينما توجه هو لزيارة الحرمين في القدس والخليل. وعندما أنهى زيارته توجه إلى المعسكر في عين جالوت. وصلت إحدى فرق هذا الجيش إلى حمص وشنت غارة على حصن الأكراد، ثم استولت على بعض القلاع في ساحل طرابلس ودمرتها، وهي قلاع عَرقْة وحلباء والقُليعات. ومن مقره في عين جالوت وجه اثنين من أمرائه نحو منطقة صور، فشنا غارة على ريفها وعادا بالغنائم والأسرى، ثم وجّه قوة منفردة نحو صيدا على الساحل اللبناني. وأرسل قوة أُخرى إلى قلعة القرين، وقوة رابعة نحو مواقع الفرنجة في جبل عاملة. وتوجه الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قوة خامسة نحو مدينة عكا. خرجت هذه القوات لتنفيذ مهماتها العسكرية التي كلفتها، فشملت الغارات السواحل الشامية من طرابلس في الشمال حتى أرسوف في الجنوب، وعادت كلها وأياديها ملآنة بالغنائم والأسرى حتى إن ما غنمته من أبقار وجواميس كان من الكثرة بحيث لم يوجد له مشترٍ.

وعندما كان السلطان نازلاً عكا حاول حكامها من الفرنجة الاتصال به من أجل التفاوض في شأن هدنة، لكنه لم يلق بالاً لهذه المحاولة، وانصرف إلى التخطيط لغزو مدينة صفد. فجهز القوات التي فرغت من مهماتها، وبدأ يرسلها نحو صفد، الفرقة بعد الأُخرى، حيث طوقت المدينة وحاصرتها. أمّا السلطان فظل في منزله عند عكا ينتظر وصول القوات العائدة من مهماتها، ولمّا اكتملت توجه بها نحو صفد لتلحق بالفرق الأُخرى التي كانت تحاصرها، فوصل إلى هناك في رمضان ٦٦٤هـ/ حزيران (يونيو) ١٢٦٦م. وعندما كان نازلاً صفد أتاه رسل ملوك الفرنجة: رسول يمثل

حكام صور، وثان يمثل أخوية الداوية، وثالث يمثل حاكم بيروت، ورابع يمثل حاكم يافا، وخامس يمثل حاكم قلعة صهيون. أمّا هو فاستمر في مباشرة الحصار والإشراف على تأمين وصول المجانيق وآلات الحصار. وروي عنه في هذا الصدد أنه لمّا عجزت الجمال عن حمل المجانيق عند مخاضة جسر الأحزان (جسر بنات يعقوب) أمر الرجال بحمل آلات على عواتقهم، حتى إنه كان هو نفسه يجر العجلات مع الأبقار. وبعد أن تمت الاستعدادات بدأت معركة اقتحام الأسوار، وشاركت كل الفعاليات العسكرية في العملية حتى اضطر أفراد الحامية الفرنجية إلى طلب التسليم، فمنحوا الأمان شرط: ألاّ يحملوا معهم سلاحاً أو درعاً أو خوذة؛ ألاّ يحملوا معهم مالاً أو آنية فضية من القلعة؛ ألاّ يتلفوا شيئاً من محتويات القلعة، أو يدمروا أو يحرقوا شيئاً؛ أن يُفتَشوا عند خروجهم للتأكد من التزامهم شروط التسليم. وإذا ضبط مع أحدهم شيء مما ذكر يصبح المسلمون في حلّ من الأمان. ثم رفعت رايات المسلمين على القلعة والأبراج، وبدأ جنود الفرنجة ينزلون من القلعة، بينما الظاهر بيبرس يقف على باب المدينة ممتطياً صهوة جواده يستعرضهم وهم يفتَشون. أفضت عملية التفتيش إلى العثور على بعض المسروقات، وكان في ذلك ما يبرر نقض العهد الذي تعهد به المسلمون، لأن فيه إخلالاً صريحاً بشروط الاتفاق. فأُنزل الفرنجة عن خيولهم ووضعوا في سرادق كبير تحت الحراسة. ثم نقلوا في اليوم التالي، وأوقفوا على تلة تشرف على الطريق، اعتاد الفرنجة أن يقتلوا عليها كل من وقع في أيديهم من المسلمين، فضربت أعناقهم جميعاً، وكانوا قرابة ٢٠٠٠ لم يُستحيَ منهم إلاّ رجلان.

بعد ذلك صعد الظاهر بيبرس القلعة، ووزع على الأمراء ما غنمه العساكر من العدو، العتاد والجواري والعبيد. ثم أمر بشحن القلعة بالسلاح والرجال الذين استدعاهم من دمشق كي يرابطوا في القلعة والمدينة، وحدد لهم نفقة شهرية مقدارها ٨٠,٠٠٠ درهم من الفضة الخالصة (درهم نقرة)، وعيّن الولاة الإداريين على نواحي صفد. وأمر ببناء جامعين، واحد في القلعة وآخر في المدينة، قبل أن يغادر صفد متوجهاً إلى دمشق.[٥٤]

يلاحِظ المتتبع للأنشطة العسكرية التي قام بها الظاهر بيبرس في هذه السنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) أن خطة تحرير فلسطين كانت جزءاً من استراتيجيا ثابتة لديه، وأن ما تم تحريره في الجولة السابقة في العام المنصرم، كأرسوف وقيسارية وحيفا، لم يكن عملاً منفرداً أو عفوياً، وإنما كان حلقة أولى في سلسلة متصلة ضمن خطة التحرير، وأن تحرير المدن والمواقع الفلسطينية من ناحية أُخرى كان جزءاً من خطة تحرير شاملة لكل البلاد التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام، إذ رأينا كيف أن جولة التحرير في هذه السنة بدأت باستنقاذ القلاع والحصون العسكرية الفرنجية في سواحل



طرابلس، بل كانت متزامنة تقريباً مع الإغارات التي شُنت على صيدا وصور وسواحل طرابلس، وعلى بعض المواقع الساحلية الباقية في فلسطين كعثليث وعكا وحصن القرين (عند قرية معليا). ولعل تزامن هذه الأنشطة التي غطت رقعة واسعة من بلاد الشام، تمتد من مدينة حمص شمالاً حتى أرسوف على مشارف يافا جنوباً، تبيّن من دون شك وفرة العساكر المملوكية وجهوزيتهم العالية لخوض غمار الحروب على جبهات متعددة في آن واحد.

كما أن الجهوزية القتالية ودرجة الاستعداد العسكري العالية، اللتين كانتا تميزان جيش الظاهر بيبرس، كانتا شبه غائبتين لدى المعسكر الفرنجي، معسكر الخصم. ويبدو أن تجربة الفرنجة مع الظاهر بيبرس، منذ لقاء الطور سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، لم تستوعب جيداً في أذهانهم، إذ ظلوا على انقساماتهم الأولى وتشرذمهم السابق، فرأيناهم قد بعثوا إليه وفودهم عندما كان نازلاً مدينة صفد، كل وفد على حدة، فوصلوا إليه فرادى ثم فارقوه فرادى.

لا بد من أن نشير في هذا السياق إلى مسألة قتل أفراد الحامية الفرنجية الذين ألقوا بسلاحهم بعد حصولهم على الأمان. ففي حين تجمع الروايات الإسلامية على أن ذلك حدث على خلفية إخلالهم بشروط الأمان الذي مُنحوه، حين حملوا معهم ما اشترط عليهم عدم حمله من القلعة، وأن القتل لهذا السبب كان مبرراً ولا يمكن اعتباره نكثاً بالعهد، يورد كينغ (King) ما فحواه أن قتلهم كان نكثاً صريحاً بالعهد ولم يكن هناك ما يبرره. وعلى الرغم من هذا التناقض في الروايتين الإسلامية واللاتينية، فإن ابن أبي الفضائل يورد في كتابه «النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد» (باريس، ١٩٣٢) أن الظاهر بيبرس لم يكن هو الذي حلف اليمين وأعطاهم العهد، وأنه أجلس أحد أمرائه في كرسي السلطان وأوقف بين يديه باقي الأمراء كي يوهم الفرنجة الذين قدموا لأخذ الأمان بأنه السلطان، وأن هذا الأمير كان كرمون التتري. وعلى أساس هذه الرواية يحاول المؤلف تبرئة ساحة الظاهر بيبرس من تهمة إخفار الذمة ونكث العهود، علماً بأن هنالك ما يشير إلى وجود نية مبيتة لديه، لأنه كان في قلبه حزازة من فرسان الداوية الذين كانوا في صفد.[٥٥]

ومن اللافت للنظر أن الظاهر بيبرس لم يأمر بهدم قلعة صفد، أو بتخريب أسوارها وحصونها كما فعل في قيسارية وأرسوف وعسقلان، وإنما قام بتعزيز تحصيناتها وشحنها بالأسلحة والعساكر، وحولها إلى مركز إداري لترقى بعد تحرير فلسطين من الفرنجة سنة ١٢٩٠ إلى رتبة الممالك في بلاد الشام، ولتصبح أكبر النيابات وأهمها في فلسطين.

## استمرار العمليات العسكرية

عندما وصل الظاهر بيبرس إلى دمشق بعد فراغه من أمر صفد عمم على العساكر والقادة أمراً يمنعهم بموجبه من دخول المدينة، وأن يظلوا في حالة استعداد دائم حتى تصدر الأوامر بسيرهم نحو مدينة سيس عاصمة أرمينيا الصغرى (الأناضول). وعندما بلغه أن جماعة من الجند دخلت دمشق، أمر بالقبض على أفرادها وإخراجهم منها مكتوفين ليلتحقوا بأمرائهم. وقبيل أواخر ذي القعدة ٦٦٤هـ/آب (أغسطس) ١٢٦٦م، تم الاستيلاء على قلعتين مهمتين للفرنجة في شمال فلسطين هما هونين وتبنين.

امتد نشاط بيبرس إلى أواسط فلسطين، واستولت قواته على الرملة، وكانت خربة مهجورة فعمرها وحولها إلى مركز إداري وعيّن عليها والياً؛ كان ذلك كله وهو مقيم بدمشق ينتظر وصول أخبار الحملة التي وجهها نحو دولة الأرمن في سيس. وفي أثناء ذلك قدم رسول من أخوية فرسان الإسبتارية يسأله تجديد الصلح مع المناطق الشمالية الخاضعة لهم في نواحي حمص وبلاد الدعوة (المناطق التي يسيطر عليها الإسماعيلية الحشاشون).

إن صدور الدعوة إلى تجديد وتثبيت اتفاقيات الهدنة بين دولة المماليك ومختلف الأطراف الفرنجية، لم تعد دعوة شاذة في الأعوام الثلاثة الأخيرة التي أعقبت استيلاء الظاهر بيبرس على السلطنة، والتي باتت تعكس تغير ميزان القوى لمصلحة المسلمين، وتحول الطرف الفرنجي إلى الطرف الأضعف في المعادلة القائمة سياسياً وعسكرياً. وبحكم هذا الواقع، فإن الظاهر بيبرس وضع شروطاً لاستجابته لطلب رسول الإسبتارية سرعان ما قبلوها. وتلخصت هذه الشروط في إلغاء الأتاوى (أو القطائع) التي كان يجبيها الفرنجة من الإمارات والبلاد الإسلامية المجاورة لهم، وهي إتاوة على مدينة حماة، وأُخرى على بلاد الدعوة، وثالثة على بلاد أبي قبيس (وهي حصن قريب من بلدة شيزر).

عقدت الاتفاقية بعد أن تضمنت بنداً يعطي السلطان صلاحية فسخ هذا العقد من طرف واحد متى شاء ذلك. ولعل هذا البند يذكرنا باتفاقيات الهدنة التي كانت تعقد بين الفرنجة والمسلمين في إبان القرن السادس الهجري، حين كانت يد الصليبيين هي العليا، وكان الطرف الفرنجي فقط يعطى هذا الحق دائماً.[٥٦]

وفي مستهل محرم ٦٦٥هـ/تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٦٦م، خرجت مجموعات مدنية من سكان المناطق الجبلية في فلسطين تحت حراسة الجنود النظاميين نحو مزارع قصب السكر في سهل عكا التي يسيطر عليها الفرنجة، فحصدوا قصب السكر، كجزء من أعمال التخريب التي تستهدف الاقتصاد الفرنجي، ثم عادوا إلى صفد. وفي الشهر



ذاته، أغار الفرنجة على بلدة طبرية، بعد أن وصلت إلى عكا نجدات إفرنجية أرسلها ولي عهد مملكة قبرص، قوامها ١١٠٠ فارس. وفي ردة فعل على هذه الغارة، خرجت قوة عسكرية من صفد نحو عكا، واشتبكت مع فرسان هذه الغارة بعد عودتهم من ناحية طبرية فألحقت بهم الهزيمة وقتلت معظمهم.

ولا تكمن أهمية هذين الحادثين في أسبابهما ولا في نتائجهما، بقدر ما تكمن في الجهة أو الجهات المسؤولة عن تنفيذهما. ففي الحالتين كان العنصر المحلي الفلسطيني هو العنصر الذي توكل بتنفيذ المهمات، ولم تقم به عناصر من خارج فلسطين كما كانت الأعمال العسكرية أو شبه العسكرية التي ينفذها الطرف الإسلامي. وإن دل هذا الأمر على شيء، فعلى توجه جديد لدى سلاطين المماليك الأوائل، وهو تقليص عنصر المركزية، ومن ثم منح الإدارات الإقليمية شيئاً من الصلاحيات التي كانت دائماً من حق القائمين على رأس الهرم السلطوي في أمور متعددة، تشمل أيضاً أموراً لها صلة بالسياسة الاستراتيجية. ولعل ذلك يكشف عن الأهداف التي وقفت وراء ترميم قلعة صفد وتعزيز تحصيناتها وتعمير مرافقها واستقدام العرب من دمشق للإقامة بها، وهو أمر نراه يتكرر بالنسبة إلى الرملة وإلى قاقون، لتصبح هذه البلاد بديلاً من البلدات والمراكز الساحلية التي كان يتمركز فيها الفرنجة قبل أن يتم تحريرها ومن ثم تدميرها كي لا تتحول إلى موطئ قدم لغزو فرنجي أوروبي في المستقبل. ففي جمادى الثانية ٦٦٥هـ/آذار (مارس) ١٢٦٧م، أمر الظاهر بيبرس بتعمير قلعة قاقون، الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة طولكرم على مسافة بضعة أميال فقط عن ساحل البحر، لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف، ثم جعلت الكنيسة فيها مسجداً، ونقل إليها جماعة ليسكنوها، حتى صارت بلدة عامرة.

وفي جمادى الثانية أيضاً وصل الظاهر بيبرس إلى صفد ليشرف على عمليات الإعمار في المدينة، وليعجل في إنجازها حتى إنه كان يشارك في نصيب من الجهد والعمل شأنه شأن أمرائه وجنوده. ومما يؤكد أن وصوله إلى صفد كان منصباً على هذه الغاية أنه ترك عساكره في معظمهم في مصر ولم يصحبهم معه. وعندما كان يضطر إلى القيام ببعض النشاطات العسكرية، كان يستعين بالعساكر المحليين التابعين لنيابة صفد، كما حدث عندما أغار على ضواحي عكا في أثناء إقامته بصفد.[٥٧]

### فتح يافا

كانت العلاقات بين الظاهر بيبرس وإمارة يافا الفرنجية تميل إلى الاستقرار منذ أن جدد الهدنة مع أمراء الفرنجة في فلسطين عند زيارته الأولى لدمشق سنة ٦٥٩هـ/

١٢٦١م؛ هذه الهدنة التي قضت بإبقاء الأوضاع على حالها كما كانت أيام ملك دمشق الناصر يوسف. وعندما كان بيبرس في صفد يشرف على عمارتها جاءه رسول من حاشية أمير يافا، الذي ورث الحكم بعد وفاة أبيه، وطلب تجديد اتفاقية الهدنة التي عقدت في دمشق، لكن السلطان بيبرس تجاهل هذا الطلب، ولم يوافق على تجديدها. ولعل تجاهله هذا كان مرده بعض التجاوزات التي حدثت من فرنجة يافا خلال الأعوام السابقة، كتزويدهم عكا بالمؤن عن طريق البحر، والتي كان السلطان فرض عليها حصاراً اقتصادياً ومنع من الاتجار معها. كما بلغه أن بعض أصحاب حانات الشراب في المدينة استخدم بعض الفتيات المسلمات للعمل في الحانة كنادلات، تجرؤاً على إيذاء المسلمين وإلحاق الإهانة بهم. ولمّا خرج السلطان إلى الشام وصل إلى معسكر العوجا في جمادى الثانية ٦٦٦هـ/آذار (مارس) ١٢٦٨م، وعندما علم فرنجة يافا بوصوله أتاه وفد منهم للتفاوض، فأمر باحتجاز أعضاء الوفد، فعرضوا عليه تسليمه المدينة والقلعة في مقابل منحهم هم وعائلاتهم وأموالهم الأمان. أمر السلطان العساكر بمهاجمة المدينة، فاقتحموها واستولوا عليها، ثم استولوا على قلعتها في اليوم التالي. ثم أعطى أهلها الأمان وسمح لهم بمغادرتها إلى عكا، وبعد ذلك شرع في هدم القلعة، وحمل رخامها وأخشابها على إحدى السفن، ونقلت إلى القاهرة، حيث استخدمت في بناء مقصورة ومنبر الجامع الظاهري الذي حمل اسم السلطان في القاهرة. وبعد أن تم تدمير القلعة وهدم أسوار المدينة رتب السلطان الحرس على السواحل، ورتب توطين بعض العناصر القبلية التركمانية لتعزيز حماية هذا الجزء من الساحل، بعد أن حدد لهم مهماتهم وفرض عليهم العداد (أي مقدار ما يؤدونه للدولة من رؤوس الخيل والعتاد في كل عام).(٥٨)

## اتساع رقعة التحرير الظاهري

رأينا حتى هذا التاريخ (سنة ١٢٦٧) أن جهود التحرير التي بذلها الظاهر بيبرس، منذ تسلم السلطنة، كانت منصبة أساساً على محيط فلسطين. وكانت مدينة يافا آخر بلد فلسطيني يضاف إلى قائمة المدن والمواقع الفلسطينية المحررة، ولم يبق سوى مدينة عكا وبعض القلاع الأُخرى. وكان بيبرس حاول أكثر من مرة أن يستولي على عكا، لكنه وجدها مستعصية صعبة المنال. إن تركيزه على تحرير المدن الفلسطينية لم يكن يعني أن سياسة التحرير التي شرع في تنفيذها كانت انتقائية، وإنما كان التحرير، كما يفهمه، يعني تحرير كل شبر من أرض الشام لا فارق بين إقليم وآخر. وعلى هذا الأساس، وبعد أن فرغ من يافا وجه جيشه إلى قلعة الشقيف، أي شقيف أرنون في



الجنوب اللبناني، ثم انضم بنفسه بعد ذلك إلى حصار هذه القلعة حتى استسلمت له، فأسر رجالها وأفرج عن النساء والأطفال وسمح لهم بالتوجه إلى مدينة صور. وهدم القلعة الجديدة التي كان جددها الفرنجة بعد أن سلمهم إياها ملك دمشق الصالح إسماعيل في إبان الحرب الأهلية بين الأمراء الأيوبيين. أمّا القلعة القديمة فقد عيّن أحد أمرائه نائباً لها ورتب فيها الفرسان والرجالة.

بعد سقوط الشقيف توجه بيبرس نحو طرابلس، وخيم على مشارفها في أواسط شعبان ٦٦٦هـ/أواخر نيسان (أبريل) ١٢٦٨م، ووجه الغارات إلى محيط المدينة ومزارعها من دون أن يحاصر المدينة نفسها، الأمر الذي يبين أن الغاية لم تكن إلاّ محاولة إرضاء عساكره بما يحصلون عليه من الغنائم. وعندما رحل عن طرابلس توجه نحو حمص ودخل حماة ولم يفصح لأحد عن الجهة التي يقصدها أو الموقع الذي يستهدفه بالهجوم. ثم قسم عسكره إلى ثلاث فرق، وقف هو على رأس فرقة، وأوكل قيادة الفرقتين الأخريين إلى اثنين من أمرائه. وبعد أن أكمل هذان الأميران المهمة التي أوكلت إليهما عادا فاجتمعا به على أبواب مدينة أنطاكية، التي حوصرت حصاراً محكماً، ووجه إنذاراً إلى من فيها من الفرنج يدعوهم إلى الاستسلام، وأمهلهم ثلاثة أيام، بدأ الزحف في نهايتها. فتسلق المسلمون الأسوار واقتحموا المدينة، فالتجأ بعض أهلها إلى القلعة، عندها أمر قادته بإغلاق أبواب المدينة كي لا يهرب أحد، وأعمل السيف فيهم، وقدّر من كان فيها بـ ١٠٠,٠٠٠ إنسان. أمّا من دخل القلعة من الأهالي وأفراد الحامية فطلبوا الأمان، فمنحهم إياه، ثم قيدوا ووزعوا عبيداً على قادة العساكر والأمراء. وكانت أنطاكية في ذلك الوقت جزءاً من مملكة بوهِمند أمير طرابلس. وبعد أن وزعت الغنائم التي وقعت في أيدي المسلمين، أمر بيبرس بإحراق القلعة، ثم عَمّ المدينة كلها بالحريق. ولمّا رأى قادة الحصون الفرنجية المجاورة ما حل بمدينة أنطاكية طلبوا الأمان فأُمّنوا وسيقوا أسرى بعد أن سلموا تلك القلاع.(٥٩)

مضى أكثر من عامين بعد تحرير مدينة أنطاكية، لم يمارس السلطان أي نشاط عسكري ذي بال على الجبهة الفلسطينية. وكانت جهوده في هذه الفترة منصبة على الجبهتين الشرقية والشمالية حيث المواجهة مع التتار والأرمن، من دون أن يتغاضى عن الحصون والقلاع الفرنجية المنتشرة في هذه المنطقة، ولا سيما ما كان منها لفرسان الإسبتارية والداوية، إذ أحرز نجاحات باهرة على هذه الجبهة، واستولى على حصون، منها حصن صافيتا الذي كان حصناً للداوية. وتسلم بعض الحصون المجاورة لحصن الأكراد، مثل حصن تل خليفة، قبيل أن يسقط هذا الحصن المهم في يده. وإلى الشمال من هذه المنطقة استولى السلطان على بعض الحصون التابعة للداوية كان أبرزها حصن عكار الواقع إلى الشمال من طرابلس.

لمّا استهل شوال ٦٦٩هـ/أواسط أيار (مايو) ١٢٧١م، خرج الظاهر بيبرس بجميع عساكره قاصداً مدينة طرابلس. وفي هذه الأثناء علم بوصول ولي عهد إنكلترا على رأس قوة من الصليبيين إلى عكا، وكان ينوي القيام بالحج إلى مدينة القدس. وهي نية تنطوي من الناحية العملية على مواجهة عسكرية محتملة مع الفرنجة في فلسطين، لأن الحج من عكا إلى مدينة القدس يترتب عليه انتهاك السيادة المملوكية الإسلامية على أرض فلسطين التي تخترقها الطريق إلى القدس. عند ذلك غيّر السلطان خططه التي أزمع على تنفيذها لمهاجمة طرابلس. وعوضاً عن ذلك بعث رسولاً من طرفه إلى أمير طرابلس الفرنجي للتفاوض معه في شأن هدنة. فتم الاتفاق عليها لفترة عشرة أعوام. ورحل بقواته ودخل مدينة دمشق، ثم تركها وذهب إلى مدينة صفد، وحمل معه المجانيق وآلات الحصار وتوجه لمحاصرة قلعة القرين القريبة من قرية معليا إلى الشمال الشرقي من مدينة عكا. وكانت قلعة القرين للفرسان التيوتون الألمان، بل هي مقرهم الرئيسي في فلسطين. حوصرت القلعة بضعة عشر يوماً إلى أن استسلمت، فأمر السلطان بهدمها. ومن الجدير بالذكر أن أحداً من الفرنجة لم يتدخل لمنع السلطان من السيطرة على القرين، فبادر بإرسال بعض الوحدات العسكرية للتحرش بهم في عكا نفسها.

ورداً على وصول الأمير الإنكليزي إدموند بنجداته إلى عكا، قام الظاهر بيبرس بتسيير قطعة من الأسطول المملوكي نحو جزيرة قبرص التي انطلق منها هذا الأمير متوجهاً إلى عكا. لكن هذه السفن لم تصل إلى أهدافها لأنها تحطمت جميعها في عاصفة بحرية اجتاحتها، وأُسر جميع من كان على متنها من البحارة.

بعد سقوط قلعة القرين أرسل فرنجة صور وفداً إلى السلطان يطلبون عقد صلح بينهما، فتم ذلك بعد أن تنازلوا له عن جزء من غلال الريف التابع لإمارة صور. وفي العام التالي عقدت اتفاقية صلح مماثلة مع الفرنجة في عكا أعيد فيها تقسيم القرى والمزارع التي كانت خاضعة لنفوذهم، فتنازلوا بموجبها عن جانب للسلطان.(٦٠)

## خلفاء الظاهر بيبرس
## واستكمال مسيرة التحرير

توفي الظاهر بيبرس في دمشق يوم الخميس الواقع فيه ١٧ محرم ٦٧٦هـ/ ٢٠ حزيران (يونيو) ١٢٧٧م، وتولى منصب السلطنة من بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان، ولي عهده ونائبه في سدة السلطنة. وفور تسلّمه السلطنة تغيرت علاقته بكبار الأمراء من المماليك الصالحية زملاء أبيه (أو خشداشيته) الذين



نفرت قلوبهم منه. وكان من أبرز هؤلاء الأمراء سيف الدين قلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وعلم الدين سنجر الحلبي، وأقرانهم. وكانت هذه الفئة من الأمراء تأنف من سلطنة بركة خان، وترى أنها الأحق والأولى بمنصب السلطنة. وكان سلوك السلطان الجديد وسوء تصرفه مع هؤلاء الأمراء، فضلاً عن استغراقه في تقريب المماليك الشباب حديثي السن ولهوه معهم سبباً قوياً في تمردهم عليه. فظل حبيساً في القلعة محاصراً بداخلها حتى تفرق عنه من كان حوله من بقية الأمراء الكبار، فاضطر إلى النزول عند رغبة المحتجين، وخلع نفسه عن السلطنة، واكتفى بقلعة الكرك تعويضاً له عن عرش الدولة، بعد أن أمضى في السلطة أكثر من عامين.

عرض الأمراء على زميلهم سيف الدين قلاوون السلطنة، فأباها ليبعد عن نفسه تهمة الطموح إلى السلطة من جهة، وكي يقوي فرصة الحصول على الصلاحيات المطلقة في إدارة شؤون الحكم عندما تحين اللحظة المناسبة من جهة أُخرى. واقترح بدلاً من ذلك ألاّ يخرج المنصب عن ذرية الظاهر بيبرس. فمال الجميع إلى قبول اقتراحه، واستدعوا ابناً آخر لبيبرس هو الطفل سلامش ابن السابعة ونصبوه سلطاناً. واتفقوا على أن يكون سيف الدين قلاوون أتابكه، وأن توكل إليهم مهمة قيادة العساكر وتدبير شؤون الولايات. استغل قلاوون منصبه والصلاحيات التنفيذية الواسعة التي خُولها، فأخذ يتخلص من الأمراء الكبار الذين يخشى منافستهم، أو اعتراضهم على خطته في الاستيلاء على السلطنة. وصار يقرّب فئة جديدة من الأمراء الذين كانوا مهمشين ويمنحهم الإقطاعات والمناصب ويعيّنهم في الولايات داخل مصر وخارجها، حتى قوي جانبه وتمكن من أسباب النفوذ والسيطرة. فجمع الأمراء وتحدث معهم عن ضرورة خلع السلطان الطفل بحجة أن المملكة لا تقوم إلاّ إذا وقف على رأسها رجل بالغ كامل. فاتفق الجميع على خلعه ونفيه إلى الكرك منفى أخيه السلطان السابق. وكانت مدة حكم سلامش ١٠٠ يوم فقط. وبعد خلعه نُصّب سيف الدين قلاوون سلطاناً، ولقب بالملك المنصور وذلك في ٢١ رجب ٦٧٨هـ/ ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٧٩م.(٦١)

أثار استيلاء قلاوون على السلطنة ردة فعل متطرفة في بلاد الشام، وصلت إلى ذروتها في تمرد نائب دمشق الأمير سنقر الأشقر وإعلان نفسه سلطاناً. فبايعه وحلف له أمراء دمشق في معظمهم، وتلاهم نواب بلاد الشام الآخرون من دون استثناء، ومعهم أيضاً أمراء آل فضل وآل مري. واتسعت دائرة التأييد لتمرده حتى شملت بعض كبار الأمراء في مصر ذاتها، وبدأوا بمكاتبته والاتصال به. تحرك سنقر الأشقر ونشر قواته في فلسطين فدخلت مدينة غزة. لكنها ارتدت عنها لما صادفته من مقاومة وتمركزت في مدينة الرملة. ولمّا شعر السلطان قلاوون بخطر التمرد واتساع التأييد

لسنقر، بعث جيشاً من القاهرة قوامه ٤٠٠٠ رجل. وعندما علم سنقر الأشقر بتحرك الجيش أمر بالانسحاب من الرملة والتوجه إلى دمشق، وأخذ يعد العدة لمواجهة جيش السلطان. لم تستغرق هزيمة سنقر الأشقر وقتاً كثيراً، فخرج من دمشق بعد أن تخلى عنه الأمراء الذين كانوا معه في معظمهم. ثم بادر إلى الاتصال بزعيم المغول أبغا ابن هولاكو يستحثه على غزو بلاد الشام، في حين انسحب هو إلى قلعة صهيون وتمركز فيها. لم يطل انتظار التتار بعد ذلك ووصل نبأ مسيرهم نحو الشام في جمادى الثانية ٦٧٩هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٨٠م، فاحتشدت عساكر دمشق وعساكر المدن الأُخرى والإمدادات التي قدمت من القاهرة عند مدينة حماة. ولدى سماع أنباء الغزو أجفل الناس في حلب وأعمالها وتركوا المدينة، فاجتاح التتار عينتاب وبغراس ودربساك، واقتحموا مدينة حلب التي كانت خالية، فعاثوا فيها نهباً وفساداً، وغادروها بعد ثلاثة أيام وعادوا إلى مواطنهم في المشرق. وصلت أنباء انسحاب التتار إلى أسماع السلطان قلاوون وهو في غزة، بنية الانضمام إلى القوات الإسلامية التي تجمعت في مدينة حماة، فأعاد قواته إلى القاهرة.

كانت أنباء الدعم الذي قدمه الفرنجة للتتار عندما غزوا حلب أزعجت السلطان، فأمر نائبه في حصن الأكراد بالقيام بغارة عقابية ضدهم جزاء دعمهم للتتار. فجمع فرسان القبائل التركمانية وضمهم إلى عسكره وحاصر الفرنجة في المرقب، لكن نتائج هذا التحرك كانت مأساوية على المسلمين الذين انهزموا أمام الفرنجة، وسقط منهم ما يربو على ٢٠٠ فارس. كبرت أنباء هذه الهزيمة في نفس السلطان، فقرر أن يخرج بنفسه للانتقام من الفرنجة. ولمّا دخل بجيشه أرض فلسطين ونزل معسكر الروحاء (عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال الكرمل)، خشي الفرنجة ردات فعله الغاضبة وأرادوا تدارك نتائجها الوخيمة؛ فقدم إلى معسكره رسل عن كل من فرنجة عكا وطرابلس وطلبوا منه تجديد اتفاقية الصلح التي كانت عقدت مع سلفه الظاهر بيبرس مدة عشرة أعوام. استجاب السلطان لهذا المطلب، ولعله وجدها فرصة مؤاتية لمنع أي تعاون بينهم وبين التتار في ضوء ما حدث مع فرنجة المرقب، إذ إن خطر التتار ما زال قائماً ولم ينته بعد.

عقدت هدنة جديدة مع إسبتار عكار وإسبتار طرابلس لمدة عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات تبدأ يوم السبت الواقع فيه ٢ محرم ٦٨٠هـ/ ٢٣ نيسان (أبريل) ١٢٨١م. ولعل ما يؤكد صدق نيات الفرنجة في مسالمة سيف الدين قلاوون وشديد عنايتهم بإثبات إخلاصهم له أنهم أطلعوه على أسرار حاكها بعض قادة عسكره لاغتياله عندما كان في معسكر الروحاء. وقد تأكد السلطان من صحة هذه التقارير، التي أفشاها الفرنجة بعدما فشلت محاولة الاغتيال، عندما وصل إلى بيسان وهو في



طريقه إلى دمشق. وفي رواية ابن عبد الظاهر عن هذه الهدنة، يشير إلى أنها عقدت مع مقدم الداوية في عكا والساحل ومع الداوية في طرطوس وليس مع فرنجة طرابلس، وأنها تشمل كل البلاد الخاضعة لنفوذ السلطان قلاوون. ومن خلال استقصاء أسماء البلدان والنواحي التي ذكرتها الاتفاقية ترتسم خريطة فلسطين المملوكية، وما تبقى من أرض فلسطين ومواقعها تحت السيطرة الفرنجية عند وفاة الظاهر بيبرس. وتشمل هذه المناطق مدينة عكا وما يتبعها من أراض وبساتين وطواحين وعدتها بما فيها المزارع ٧٣ ناحية، و٧ نواح في منطقة حيفا بما فيها الأديرة ومحيطها، مثل دير مار سابا ودير السياج ودير مار الياس. أمّا بلاد الكرمل فمنها ١٣ ناحية تكون للفرنجة، ما عدا قريتي عسفيا والمنصورة فتكونان تابعتين للسلطان. وتضم مناطق الفرنجة أيضاً عثليث؛ القلعة والبلد وكروم العنب المقطوعة والأرض الزراعية (المفتلحة). وما تبقى من النواحي وهي ١٦ ناحية، يستثنى منها قرية الهراميس التي تكون تابعة للسلطان. وتكون بقية النواحي وهي ٨ نواح مناصفة بين الفرنجة والسلطان.[٦٢]

## تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام

### حصن المرقب

عندما عقد السلطان قلاوون اتفاقية الهدنة مع فرنجة عكا وفرنجة طرابلس كان في معسكر الروحاء في فلسطين، يقود جيشاً لمهاجمة حصن المرقب. ويبدو أن عقد الهدنة أو مشاغل أُخرى طرأت منعته من القيام بهذا الهجوم. لكن ذلك لم يطفئ نار الحقد التي تأججت في صدره ضد فرسان الإسبتارية المقيمين بهذا الحصن، منذ أن أنزلوا بعساكره الهزيمة الدامية عندما حاول الانتقام منهم بسبب تعاونهم مع التتار الذين غزوا حلب سنة ١٢٨٠. وحين وصل إلى دمشق سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م لانتزاع ما تبقى من المواقع في يد الأمير سنقر الأشقر، الذي سبق أن تمرد عليه كما ذكر، بلّغه بعض نوابه في الشام عن خروق لبعض بنود الهدنة ارتكبها فرسان حصن المرقب من الإسبتارية.

اتخذ السلطان ذلك ذريعة لتصفية حسابه مع فرنجة هذا الحصن، وتوجه إليه وضرب عليه حصاراً دام ٣٨ يوماً استخدمت فيها المجانيق وآلات النقب. ولمّا تمكن المحاصرون من إحداث نقوب في القلعة أذعن رجال الحامية وطلبوا الأمان من السلطان، فاستجاب لهذا الطلب خشية أن يؤدي استمرار القتال إلى تخريب أسوار

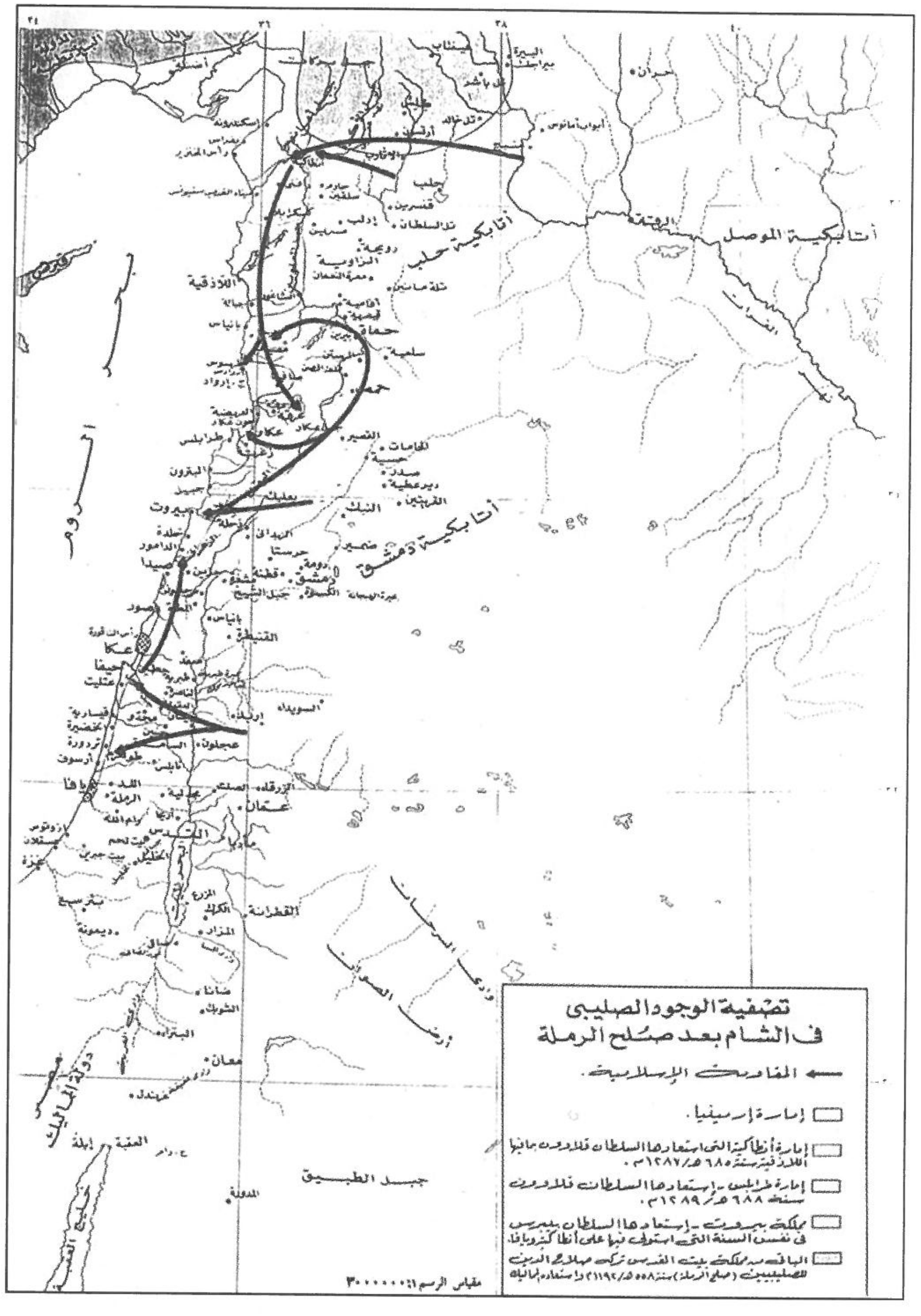




القلعة. وكان أراد أن يحافظ على عمارة الحصن وإبقائه سليماً غير مدمر. وبموجب الأمان الذي منح للفرنجة غادروا الحصن بما قدروا على حمله من أموالهم وأمتعتهم.

كان حصن المرقب واحداً من المواقع الفرنجية القليلة، غير صور وطرابلس وأنطاكية، التي لم تسقط في يد السلطان صلاح الدين، وتميز بالمنعة والحصانة. وكان بني على لسان بري داخل البحر لا وصول إليه براً إلاّ من جهة واحدة. والمرقب بلد وحصن على ساحل البحر الأبيض المتوسط على شاطىء مدينة جَبَلَة. عمّره المسلمون سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م ليحمي مرفأي جبلة وبُلُنْياس. وقد زاره الرحالة المشهور ابن بطوطة سنة ١٣٥٥ وشبهه من حيث الحصانة بحصن الكرك.[٦٣]

## تحرير طرابلس

أرسل نائب السلطان في دمشق كتاباً إلى السلطان قلاوون يبلّغه فيه أن فرنجة طرابلس قبضوا على عدد من تجار المسلمين وعلى مسلمين آخرين من السابلة واحتجزوهم في الأسر، وأن ذلك يناقض التفاهمات التي توصلوا إليها مع السلطان في أعقاب استيلائه على حصن المرقب، والتي تعهدوا بموجبها بألاّ يتعرضوا لتاجر أو يقطعوا الطريق على مسافر. وكان ما ورد في هذه الرسالة سبباً كافياً عند قلاوون لمهاجمة طرابلس وأخذها بالقوة.

شرع السلطان على الفور في تجهيز العساكر المصرية استعداداً للتحرك نحو طرابلس، وأصدر أوامره إلى نوابه في ممالك الشام بأن يجهزوا عساكرهم للمشاركة في هذه المهمة. وفي صفر ٦٨٨هـ/ آذار (مارس) ١٢٨٩م، كانت عساكره تقف قبالة المدينة إيذاناً بمهاجمتها.

لقد خرج السلطان المملوكي سيف الدين قلاوون إلى الحرب ضد إمارة طرابلس وهو يعلم بأنها ستقف وحيدة في المواجهة معه، وبأن فرنجة طرابلس لن يجدوا ولو نصيراً واحداً بين أمراء الدويلات الفرنجية في الشرق. إذ كان وصل النزاع والتنافس بين أمراء الفرنجة إلى ذروة جديدة في الأعوام الأخيرة من سلطنة الظاهر بيبرس، وانعكست نتائجهما على حالة التمزق والتفرقة التي سادت الكيانات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين. فعجزت الدويلات الفرنجية منفردة أو مجتمعة عن استغلال العروض المتوالية لملوك التتار من أجل التحالف معهم ضد المماليك عدوهم المشترك. حتى إن التوجهات المتكررة التي بادر إليها زعماء التتار لتوسيط البابوية في روما للحث على هذا التحالف، باءت كلها بالفشل. وفوق ذلك كله، فإن أوروبا المسيحية التي كانت العواطف الدينية الجياشة تحرك شعوبها من أجل نجدة إخوانهم في مملكة

القدس، في إبان القرن الثاني عشر، لم تعد ذلك المعين الثرّ الذي كان يضخ دماء جديدة في جسد صليبيي الشرق المتهالك، وغابت تلك الحماسة التي كانت تدفع بالألوف، بل بعشرات الألوف من المتطوعين الأوروبيين الذين يأتون لإنقاذ إخوانهم الصليبيين. وبدلاً من ذلك بدأ بعض ملوك أوروبا وبعض أمرائها يحرصون على عقد المعاهدات التجارية مع سلاطين المماليك التي كانت تشتمل على بنود صريحة تمنعهم من المشاركة في أعمال عدوانية بعضهم ضد بعض. وفي هذا الصدد، ساهمت المنافسة الاقتصادية المحمومة بين جوالي المدن التجارية الإيطالية المقيمة بالشرق، وخصوصاً بعكا وصور وبيروت وطرابلس، في تأجيج الصراع التجاري بشأن الاستحواذ على التجارة بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط، كما حدث في الحرب التي استعرت بين مدينتي جنوى والبندقية (فينيسيا)، وانعكست آثارها على طرابلس والإمارات الأُخرى.

وفي غياب شخصية كاريزماتية تقف على رأس المجتمع الصليبي في بلاد الشام، فتح الباب على مصراعيه للتنافس بشأن الحكم، أو ما يسمى حروب وراثة السلطة. وكثيراً ما كان المتنافسون يلجأون إلى السلطان المملوكي بحثاً عن دعم ضد خصومهم.

في مثل هذا الحال كانت معركة طرابلس شبه محسومة، ولم تكن المسألة سوى مسألة كم سيستغرق سقوطها من الوقت. وعلى الرغم من أن الهجوم الإسلامي لم يكن إلاّ من جهة الشرق، وهي الجهة البرية الوحيدة التي يستطيع جيش قلاوون القتال منها، لأن جهاتها الثلاث الأُخرى كانت محاطة بمياه البحر، فإن الأمر لم يستغرق إلاّ ٣٤ يوماً من الحصار، إذ اقتحمت المدينة بعدها عنوة، وذلك في ٤ ربيع الثاني ٦٨٨هـ/ ٢٧ نيسان (أبريل) ١٢٨٩م. ولم ينج من أهلها إلاّ القليلون الذين استطاعت مراكبهم الابتعاد عن الميناء، بينما وقع الباقون بين قتيل أو أسير أو غريق. وأمر قلاوون بتدمير المدينة وتعفية آثارها. وبسقوط طرابلس سقطت جَبَلة وما حولهما من الحصون. أمّا مدينة جبيل فقد أقطعها السلطان إلى أحد أمراء الفرنجة مكافأة له على موقفه المعارض للأميرة لوتشيا الوارثة والوصية على عرش أخيها بوهِمند السابع أمير طرابلس المتوفى. ومن الجدير بالذكر في هذا السياق، أن طرابلس كانت واحدة من المدن التي لم يتم تحريرها في إبان الفتح الصلاحي في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وظلت في يد الصليبيين ما يقرب من ١٨٥ عاماً من دون انقطاع منذ احتلوها في مستهل القرن السادس الهجري (سنة ٥٠٢هـ). وفي الوقت الذي شُرع في تدمير المدينة وهدم تحصيناتها بناء على أوامر السلطان قلاوون، شرع أيضاً في بناء مدينة طرابلس الجديدة في جوار موقع البلد



القديم. فاستغرقت أعمال البناء والتعمير عدة أعوام إلى أن تم الفراغ منها سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤ - ١٢٩٥م، وتحولت المدينة الجديدة مركزاً لنيابة طرابلس المملوكية، وأصبحت مقراً للنائب الذي يعيّنه السلاطين.(٦٤)

## فتح عكا ونهاية المطاف

لم يظهر السلطان سيف الدين قلاوون أي نية في مهاجمة عكا بعد أن أتم الاستيلاء على طرابلس وناحيتها. وعلى النقيض من ذلك فإنه لم يتردد في تجديد اتفاقية الهدنة مع قادتها مدة عشرة أعوام وعشرة أشهر، كما جرت العادة. فعندما غادر ميدان المعركة في طرابلس وتوجه إلى دمشق استقبل رسل الفرنجة الذين أعربوا عن رغبتهم في تجديد اتفاقية الصلح؛ حتى إن الجنويين، أكثر الأطراف المتضررة من سقوط طرابلس، أسرعوا إلى عقد اتفاقية صداقة مع السلطان حصلوا بمقتضاها على امتيازات تجارية في ميناء الإسكندرية. وبفضل هاتين الاتفاقيتين عادت المياه إلى مجاريها بين المسلمين والفرنجة، بل شهدت الحركة التجارية بين الطرفين نشاطاً غير مسبوق. استمر الحال على هذا المنوال إلى أن وصلت إلى عكا في آب/ أغسطس ١٢٩٠ دفعة جديدة من الفرسان بمبادرة دولة البندقية، فيما عرف باسم الحملة الإيطالية. وكان رجال هذه الحملة، على قلة عددهم، يفتقرون إلى الخبرة والنظام وروح الفروسية الأوروبية التي ميزت كثيرين من المشاركين في الحملات الصليبية السابقة، الأمر الذي جعلهم أقرب إلى الرعاع منهم إلى مجتمع الفرسان والفروسية. أراد رجال هذه المجموعة أن يعبروا عن حماستهم الدينية، وأن يظهروا جدارتهم وإخلاصهم للقيم الصليبية؛ فقاموا بعمل طائش حرص فرنجة الشام وفلسطين على نبذه منذ زمن بعيد. إذ انتشرت مجموعات منهم في المناطق الريفية التابعة لولاية الفرنجة في عكا، وشرعت في مهاجمة الفلاحين والاعتداء على مزارعهم وأملاكهم، وكانت أغلبية سكان الريف من العرب المسلمين كما هو معروف. وعندما عادت هذه المجموعات إلى عكا قصد أفرادها الفنادق التي يقيم بها التجار المسلمون الذين كانت اتفاقية الصلح تضمن سلامتهم والحفاظ على أموالهم وتجاراتهم، وارتكبوا ضدهم المجازر، حتى بلغ بهم تعطشهم إلى الدماء أن شملوا بهذه المذابح تجاراً من المسيحيين العرب والسريان لمجرد أنهم من أبناء المشرق العربي الإسلامي.

لمّا علم السلطان بخبر هذه المجازر، استبد به الغضب وقرر الانتقام من فرنجة عكا، وأصدر أوامره إلى نائب دمشق بأن يسهل للأمير شمس الدين الأعسر ورجاله مهمتهم في قطع الأخشاب لعمل المجانيق وتجهيز الأسلحة اللازمة لمحاصرة مدينة

عكا. وفرضت على القرى والضياع جبايات مالية أمر بصرفها على تصنيع المعدات وشحنها من الشام إلى ساحل فلسطين. ثم أرسل قلاوون كتاباً إلى زعماء الفرنجة في عكا يطلب فيه تسليمه الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجرائم. ولمّا عقد اجتماع للبارونات في المدينة للنظر في رسالة السلطان انقسمت الآراء بين مؤيد للاستجابة لمطلبه ورافض لها. أخيراً، اتفقوا فيما بينهم على رد تبريري يتنصل المجلس فيه من المسؤولية عما حدث، ويلصقها بأناس غرباء عن المدينة وأهلها لا سلطة للقيادة عليهم. وكما كان متوقعاً فإن السلطان قلاوون خرج من القاهرة، وأقام معسكراً على مقربة من عكا استعداداً للزحف إليها، بعد أن بلّغ نوابه في بلاد الشام ضرورة الاستعداد لإرسال القوات المحلية لتنضم إلى الهجوم. لكن خطة قلاوون للهجوم لم تر النور لأنه أصيب بمرض وهو في المعسكر، ثم بدأ وضعه الصحي يتفاقم حتى فارق الحياة وحمل جثمانه ليدفن في القاهرة.

تولى الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون السلطنة صبيحة اليوم التالي لوفاة أبيه، في ٧ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٩٠م. وكان تقلد ولاية العهد بقرار من أبيه قبل ذلك بعامين. وبعد ثمانية أشهر من تولي الأشرف خليل السلطنة قرر الشروع في الحملة ضد عكا، وأخطر نوابه في الشام بضرورة القدوم بعساكرهم إلى أرض المواجهة قبالتها. فقدر المؤرخ أبو الفداء، الذي كان يرافق جيش حماة بصحبة أبيه الأمير الأيوبي، أن عدد فرسان المسلمين تجاوز ٦٠,٠٠٠ فارس، عدا المشاة الذين تجاوزوا ضعفي هذا العدد. وإذا ما كانت تقديرات أبي الفداء مطابقة للواقع، وهو أمر مشكوك فيه، فإن عدد المقاتلين المسلمين كان أكبر كثيراً من عدد المدافعين الفرنجة على الرغم من أنهم حشدوا كل من يستطيعون حشده من عساكر. ولدى شعور الفرنجة بالخطر الذي يمثله هجوم الأشرف خليل، حاولوا تناسي خلافاتهم والوقوف صفاً واحداً للدفاع عن مدينتهم. واستعانوا بوفود الحجاج التي تجمعت في المدينة، كما أن ملك قبرص، هنري الثاني، هب لنجدتهم ومعه بضع مئات من المقاتلين جاؤوا محمولين في البحر. وقد حاول ملك قبرص أن يبدأ حواراً مع الأشرف خليل للتوصل إلى تسوية سلمية، لكن من دون جدوى. ثم اضطره تردي أوضاع الصليبيين وانحطاط استعداداتهم القتالية إلى ترك ساحة القتال، وانسحب ومعه جنوده إلى بلده، فأدخل رحيله اليأس إلى قلوب الفرنجة.

على الرغم من عناد فرسان الداوية والإسبتارية في الدفاع عن المدينة فإن قوات المسلمين استطاعت اختراق صفوف المدافعين في الأبراج وفوق الأسوار، بعد أن أحدث رمي المجانيق الضخمة الـ ٩٢ ثغرات كثيرة في الأسوار لم يستطع الفرنجة منع تسرب جنود المسلمين من خلالها، وأعاقت الأبراج الموجودة في داخل المدينة وراء



الأسوار سرعة استيلاء المسلمين على البلد، الأمر الذي مكّن قسماً من السكان من الفرار وركوب السفن والقوارب للنجاة بأنفسهم. ولمّا أذعن حماة هذه الأبراج أخيراً، أعمل المسلمون السيف فيهم، ولذلك كانت أعداد قتلى الفرنجة تفوق الحصر.

سقطت مدينة عكا في يد المسلمين يوم الجمعة الواقع فيه ١٧ جمادى الثانية ٦٩٠هـ/١٧ حزيران (يونيو) ١٢٩١م، إذ صادف اليوم والشهر ذاتهما عندما استردها الفرنجة وأخذوها من السلطان صلاح الدين قبل ١٠٣ أعوام، وبعد أن دام حصارها ٤٤ يوماً.

وعلى غرار المدن الفلسطينية الساحلية كلها تقرر أن تهدم مدينة عكا وتدك أسوارها وتحصيناتها دكاً. ولمّا سقطت المدينة، قاعدة مملكة القدس اللاتينية، ألقى الله الرعب في قلوب الفرنجة في سواحل فلسطين وبلاد الشام عامة. ففروا من مدن بيروت وصيدا وصور، وأرسل السلطان من تسلم المدن الثلاث. ثم سلمت عثليث وحيفا وطرطوس، فأمر السلطان بها جميعاً فخربت عن آخرها. وتكاملت بهذا الفتح الكبير مراحل التحرير التي بدأها الظاهر بيبرس في ستينيات هذا القرن، وتطهرت سواحل بلاد الشام وفلسطين من الوجود الفرنجي الصليبي الذي دام في مرحلتيه الأولى والثانية قرنين إلاّ بضع سنين.[٦٥]

## فلسطين من طرد الفرنجة إلى الغزو العثماني

بعد سقوط آخر معاقل الصليبيين في فلسطين، عكا وعثليث، يكون مضى أكثر من ٣٠ عاماً على قيام النظام المملوكي الذي بدأ بالانتصار على التتار في عين جالوت، شهدت فلسطين خلالها أهم عملية تحرير عرفتها مذ أصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية في العقد الثالث للقرن السابع الميلادي. وأفرزت هذه العملية نمطاً جديداً من أنماط الجهاد الإسلامي الذي اكتملت أبعاده الأساسية الثلاثة: الدفاع عن الدين؛ الدفاع عن العرض؛ الدفاع عن الوطن. وبانتهاء عملية التحرير تراجعت فلسطين عن مكان الصدارة الذي تبوأته طوال القرنين الماضيين، كمسرح للمواجهة بين أوروبا المسيحية والشرق المسلم، لتدخل في دائرة الظل على مسرح الحدث في الفترة المملوكية التي دامت أكثر من قرنين وربع قرن. فبعد أن أفلت شمس بغداد وفقدت دورها الريادي كمحور للحدث السياسي في المشرق الإسلامي، وبعد أن هُمش دور دمشق وأصبحت تدور في فلك القاهرة، وبعد أن فرضت القاهرة إرادتها السياسية على أرض بلاد الشام وأرض الجزيرة وتحولت عاصمة لسلاطين الدولة المملوكية، أضحت فلسطين تؤدي دور المتلقي في كل حالة، سواء أكان الحدث منتجاً في القاهرة، أم

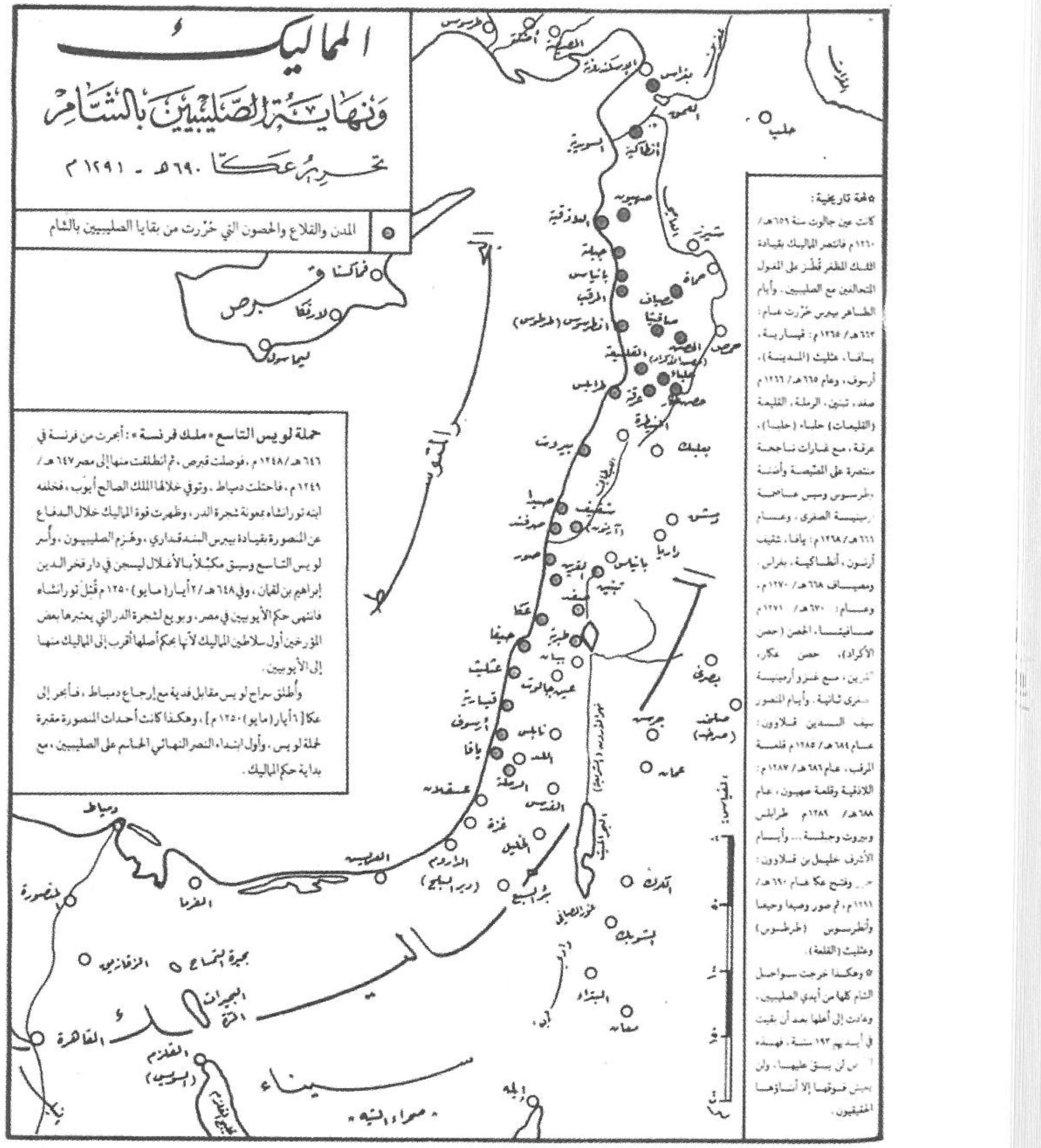


الحملات الصليبية



كان منتجاً في دمشق.

في ظل هذا الوضع السياسي الجديد، فإن ما كان يجري على أرض فلسطين من تطورات أو ما يحدث من أحداث، إنما كان صدى لمجريات الأمور في القاهرة أو في دمشق. وفي كثير من الأحوال كان امتداداً طبيعياً لردات الفعل التي تنشأ عن دمشق على خلفية علاقات حكامها، نواب السلاطين، بسلاطين القلعة في القاهرة. وإذا أردنا أن نسمي الأشياء بأسمائها، فإن ما كان يحدث في فلسطين إنما كان متأثراً بالثورات أو عمليات التمرد التي كانت تتفجر في دمشق ضد سياسة سلاطين القاهرة بين الحين والآخر. وفي هذا السياق، يجب الإشارة إلى الدور الذي كان يؤديه نواب مملكة صفد، أكبر الولايات الفلسطينية وأجلها شأناً، عندما كانت تنشب ثورات يتزعمها نواب دمشق أو نواب حلب ضد سلاطين القاهرة، سواء كان انضمامهم إلى هذه الثورات طوعياً، أو كان قسرياً.

ففي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٨٠م، عندما ثار الأمير سنقر الأشقر في دمشق ضد استيلاء قلاوون على السلطنة انضم إليه والي صفد الأمير علاء الدين الكبكي، وأرسل جيشاً للقتال إلى جانب الأمير المتمرد. ولمّا هزم المتمردون عزل الكبكي عن النيابة.[٦٦]

وفي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦ – ١٣٤٧م، عندما سعى نائب دمشق يلبغا اليحياوي لخلع السلطان الكامل شعبان عن عرش السلطنة، وتعيين أخيه حاجي بن محمد، حفيد السلطان قلاوون، انضم إليه نائب صفد مع نواب ممالك الشام الأُخرى. ولمّا أخفق هذا المسعى دفع نائب صفد الثمن بعزله عن منصبه.[٦٧]

وعندما قرر نائب حلب الأمير بيبغاروش عزل السلطان الناصر حسن عن عرش مصر أيده نواب الشام، ومنهم أمير صفد ألطنبغا برناق. ولمّا فشلت هذه المحاولة كان مصيره القتل كمصير بقية الأمراء الذين انضموا إلى هذه الحركة.[٦٨]

أعتقد أن من غير المفيد الاستطراد في تقصي هذه الحالات على كثرتها، نظراً إلى التشابه الكبير فيما بينها من ناحية الدوافع والنتائج، وبالأحرى لأنها، في الغالب، لم تسفر عن أي تغيير ذي قيمة استراتيجية أثّر في فلسطين أو في بلاد الشام عامة. ويكفي أن نشير إلى أن هذه الظاهرة استمرت خلال القرنين الثامن الهجري والتاسع الهجري/ الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي في عهود المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة على حد سواء.[٦٩]